

البيئة الصحراوية وأثرها في تشكيل الذائقة الجمالية والإيقاع في الشعر الجاهلي: دراسة بلاغية تحليلية

د. خالد بن عائض بن محمد القرني

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بقسم مهارات تطوير الذات، جامعة الملك سعود

المملكة العربية السعودية

Kalgarni@ksu.edu.sa

تاريخ قبول البحث: ٢٠٢٦/٤/١٥ م

تاريخ تسلم البحث: ٢٠٢٦/٣/٦ م

الملخص:

يتناول البحث أثر البيئة الصحراوية في تشكيل الذائقة الجمالية والبنية الإيقاعية في الشعر الجاهلي، انطلاقاً من فرضية رئيسة مفادها أن الصحراء عنصر فاعل أسهم في بناء التصور الفني والبلاغي للشاعر العربي القديم؛ ويهدف البحث إلى الكشف عن طبيعة العلاقة بين الخصائص المناخية والبيئية للصحراء وبين تشكيل الصورة الشعرية والإيقاع والمضمون، مع إبراز البعد النفسي والرمزي لهذه العلاقة.

واعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي، من خلال دراسة نماذج شعرية جاهلية تحليلها بلاغياً وإيقاعياً لمعرفة أثر البيئة الصحراوية في تشكيل الذائقة الجمالية والبنية الإيقاعية في الشعر الجاهلي مع الاستعانة في التحليل بالمنهج النفسي.

وقد بدأ بتمهيد نظري عالج مفهوم البيئة الصحراوية وخصائصها، وأثرها في تشكيل الوعي الجمالي، ثم انتقل إلى دراسة تحليلات الصحراء في الصورة الشعرية، ظهرت فيه عناصر مثل الأطلال والناقة والوحوش بوصفها رموزاً دالة على الفناء والصبر والتحمل، كما بين أن الذائقة الجمالية التي أفرزتها الصحراء اتسمت بالبساطة والتكثيف والوضوح.

وتناول البحث أثر الأحوال المناخية كالحرارة والرياح والجفاف في تشكيل الإيقاع الشعري؛ فقد انعكست قسوة البيئة في بنية إيقاعية تتسم بالقوة والصلابة، كما أثرت هذه الظروف في مضمون الشعر، فبرزت موضوعات الرحلة والمعاناة والصبر؛ ودرس البحث ظاهرة السراب بوصفها انعكاساً نفسياً للمناخ الصحراوي التي تحولت إلى رمز للخيبة والوهم في الخيال الشعري، مع ما يصاحبها من توتر نفسي وقلق وجودي.

كما عالج البحث الرموز المناخية في الشعر الجاهلي، مثل الرياح والمطر والشمس، مبرزاً دلالاتها الرمزية وتأثيرها في الإيقاع الداخلي للنص، من خلال التكرار الصوتي والتوازي

الإيقاعي؛ وخلص البحث إلى أن البيئة الصحراوية تمثل عنصرا بنيويا في تشكيل الشعر الجاهلي، وأنّ التفاعل بين الإنسان والمناخ أسهم في إنتاج خطاب شعري يجمع بين البعد الجمالي والنفسي والإيقاعي، مما يؤكد مركزية البيئة في فهم النص الأدبي القديم.

الكلمات المفتاحية: البيئة الصحراوية، الذائقة الجمالية، الشعر الجاهلي، الإيقاع الشعري، الصورة الشعرية، المناخ، السراب، الرمزية، التحليل البلاغي.

Desert environment and its effect in forming the aesthetic sensibility and rhythm in pre-Islamic poetry

Dr. Khalid bin Aeid Algarni

Assistant Prof. of Rhetoric and Criticism, Self-Development Skills
Department, King Saud University, Saudi Arabia

Kalgarni@ksu.edu.sa

Date of Receiving the Research: 6/3/2026 Research Acceptance Date: 15/4/2026

Abstract:

This research examines the impact of the desert environment on the formation of aesthetic taste and rhythmic structure in pre-Islamic Arabic poetry, based on the main hypothesis that the desert was not merely a spatial setting, but an active element that contributed to shaping the artistic and rhetorical perception of the early Arab poet. The study aims to reveal the nature of the relationship between the climatic and environmental characteristics of the desert and the formation of poetic imagery, rhythm, and content, while highlighting the psychological and symbolic dimensions of this relationship.

The research adopts a descriptive-analytical method through the study of selected pre-Islamic poetic texts, analyzing them rhetorically and rhythmically. It begins with a theoretical introduction addressing the concept of the desert environment, its characteristics, and its role in shaping aesthetic awareness. It then moves to examine the manifestations of the desert in poetic imagery, where elements such as debris, the camel, and wild animals appear as symbols of transience, patience, and endurance. The study also demonstrates that the aesthetic taste shaped by the desert is characterized by simplicity, density, and clarity.

The research further explores the influence of climatic conditions, such as heat, wind, and drought, on poetic rhythm, showing how the harshness of the environment is reflected in a rhythmic structure marked by strength and rigidity. These conditions also affect poetic content, highlighting themes of journey, suffering, and endurance. Additionally, the study analyzes the phenomenon of mirage as a psychological reflection of the desert climate, where it becomes a symbol of illusion and disappointment in the poetic imagination, accompanied by psychological tension and existential anxiety.

Finally, the research addresses climatic symbols in pre-Islamic poetry, such as wind, rain, and the sun, emphasizing their symbolic meanings and their influence on the internal rhythm of the text through phonetic repetition and rhythmic parallelism. The study concludes that the desert environment constitutes a structural element in the formation of pre-Islamic poetry, and that the interaction between humans and climate contributed to producing a poetic discourse that combines aesthetic, psychological, and rhythmic dimensions, confirming the centrality of the environment in understanding early Arabic literary texts.

Keywords: *Desert environment, aesthetic taste, pre-Islamic poetry, poetic rhythm, poetic imagery, climate, mirage, symbolism, rhetorical analysis.*

المقدمة :

تُعَدُّ العلاقة بين البيئة والإبداع الأدبي من القضايا المركزية في الدراسات النقدية الحديثة والقديمة على السواء، إذ لم يُنظر إلى النص الأدبي بوصفه كيانا معزولا عن محيطه، ولكن لكونه نتاجا حيًّا لتفاعل الإنسان مع شروطه الطبيعية والاجتماعية؛ وتبرز البيئة الصحراوية بوصفها أحد أهم العوامل التي أسهمت في تشكيل الوعي الجمالي والبلاغي لدى العربي في العصر الجاهلي، فقد فرضت بطبيعتها القاسية وخصائصها المتفردة نمطا خاصًا من التفكير والتعبير انعكس بوضوح في الشعر بوصفه الفن الأبرز آنذاك.

وكانت الصحراء -بما تتسم به من امتداد لا نهائي وجفاف وتقلبات مناخية حادة- أكثر من مجرد فضاء جغرافي؛ إذ شكّلت منظومة رمزية وثقافية متكاملة أثّرت في رؤيا الشاعر للعالم، وحدّدت طرائق تمثّله للوجود؛ فانعكست هذه البيئة في بنية القصيدة الجاهلية من خلال حضور عناصرها الأساسية كالأطلال والناقة والرياح والسراب، لتتحول من مكونات طبيعية إلى رموز دلالية غنية تعبّر عن القلق الوجودي والتحمّل والصراع مع الفناء، ويمكن القول: إنّ التجربة الشعرية الجاهلية لا تُفهم على نحو دقيق دون استحضار السياق البيئي الذي نشأت فيه.

وأُسهمت الأحوال المناخية القاسية، مثل: الحرارة الشديدة والجفاف والرياح العاتية، في تشكيل الإيقاع الشعري؛ فقد انعكست هذه القسوة في بنية صوتية تتسم بالقوة والصلابة والتكرار، بما يتلاءم مع طبيعة الحياة الصحراوية القائمة على التحمّل والمواجهة؛ ولم يقتصر تأثير المناخ على الإيقاع فحسب، بل إنه امتد ليشمل المضمون الشعري، فبرزت موضوعات الرحلة والمعاناة والصبر بوصفها تعبيرًا عن تجربة إنسانية عميقة في مواجهة الطبيعة من ناحية.

ومن ناحية أخرى، أفرزت البيئة الصحراوية أنماطا خاصة من الخيال، تمثّلت أبرز تجلياتها في ظاهرة السراب التي تحوّلت إلى رمز نفسي يعكس حالات الوهم والترقب وخيبة الأمل، وقد أسهم هذا البعد في إثراء الصورة الشعرية، ومنحها أبعادا نفسية ورمزية تتجاوز المباشر والمحسوس.

ويسعى البحث إلى استكشاف أثر البيئة الصحراوية في تشكيل الذائقة الجمالية والإيقاع الشعري في الشعر الجاهلي، من خلال تحليل بلاغي يركّز على العلاقة بين المناخ والصورة والرمز والإيقاع، كما يهدف إلى إبراز الكيفية التي أسهم بها التفاعل بين الإنسان وبيئته في إنتاج خطاب شعري متكامل، تتداخل فيه الأبعاد الجمالية والنفسية، مما يفتح أفقا أوسع لفهم النصوص الشعرية في سياقها الثقافي والحضاري.

مشكلة البحث:

وتتبع مشكلة البحث من الحاجة إلى إعادة قراءة الشعر الجاهلي في ضوء العوامل البيئية، وبخاصة البيئة الصحراوية، بوصفها عنصراً فاعلاً في تشكيل البنية الجمالية والإيقاعية للنص الشعري.

وتتحدد الإشكالية الرئيسة في البحث في التساؤل عن طبيعة العلاقة بين البيئة الصحراوية، بما تتضمنه من خصائص مناخية وجغرافية قاسية، وبين البنية الفنية للشعر الجاهلي، من حيث الصورة الشعرية والإيقاع والمضمون والرمز؛ فهل كانت الصحراء مجرد موضوع يتناوله الشاعر، أو أنها أسهمت في تشكيل أدواته التعبيرية ورؤيته الجمالية؟ وكيف انعكست عناصر مثل: الحرارة والرياح والجفاف والسراب في الإيقاع الشعري وبنية الصوتية؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار الرموز المناخية، كالناقة والريح والمطر، مكونات بنوية تؤثر في إنتاج المعنى لا مجرد صور زخرفية؟!

وتتفرع عن تلك الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية التي يسعى البحث إلى معالجتها، من أبرزها: كيف أسهمت البيئة الصحراوية في تكوين الذائقة الجمالية القائمة على البساطة والتكثيف والوضوح؟ وما العلاقة بين قسوة المناخ والإيقاع الشعري الذي يتسم بالقوة والصلابة؟ وكيف انعكست الظواهر الطبيعية، مثل السراب في تشكيل الخيال الشعري والبعد النفسي للنص؟ وهل يمكن قراءة هذه الظواهر بوصفها تعبيراً عن قلق وجودي عميق يعيشه الشاعر في بيئة تتسم بالتحول وعدم الاستقرار؟.

وتتجلى أهمية تلك المشكلة في كونها تسعى إلى سد فجوة في الدراسات الأدبية التي تفصل غالباً بين النص وسياقه البيئي، إذ يحاول هذا البحث إعادة وصل الشعر الجاهلي ببيئته الطبيعية، والكشف عن التفاعل الجدلي بين الإنسان والصحراء في إنتاج الخطاب الشعري، كما تكمن أهمية المشكلة في أنها تفتح أفقاً جديداً لفهم البنية الإيقاعية والرمزية للشعر، من خلال ربطها بالعوامل المناخية والبيئية، بدل الاقتصار على التحليل الشكلي أو البلاغي المجرد.

ويسعى البحث إلى معالجة تلك الإشكالية من خلال تحليل بلاغي وإيقاعي للنصوص الشعرية الجاهلية، بهدف الكشف عن الدور العميق الذي أدته البيئة الصحراوية في تشكيل ملامح الشعر العربي القديم، وإبرازها بوصفها عنصراً بنوياً لا يمكن إغفاله في أي قراءة نقدية جادة.



أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من كونه يتناول العلاقة بين البيئة الصحراوية والشعر الجاهلي بوصفها علاقة بنوية عميقة، تسهم في فهم النص الأدبي ضمن سياقه الطبيعي والثقافي، لا بمعزل عنه؛ فالدراسة تسعى إلى تجاوز القراءات التقليدية التي ركزت على الجوانب اللغوية أو التاريخية، لتقدم مقارنة تكشف أثر العوامل البيئية، وخصوصاً المناخ الصحراوي، في تشكيل الذائقة الجمالية والبنية الإيقاعية والرمزية في الشعر العربي القديم.

وتتجلى أهمية البحث في إسهامه في إبراز دور البيئة الصحراوية كعنصر فاعل في إنتاج المعنى، كانت الصحراء مصدراً أساسياً للرموز والدلالات التي شكّلت جوهر التجربة الشعرية؛ ومن خلال ذلك، يقدم البحث فهماً أعمق للكيفية التي تحولت بها عناصر الطبيعة، مثل الرياح والحرارة والسراب، إلى مكونات جمالية ونفسية تؤثر في بنية النص وإيقاعه.

وتكمن أهمية الدراسة في ربطها بين الإيقاع الشعري والظروف المناخية، وهو جانب لم يحظَ بالقدر الكافي من الاهتمام في الدراسات السابقة، إذ تسعى إلى بيان كيف انعكست قسوة البيئة في أنماط إيقاعية تتسم بالقوة والصلابة والتكرار، بما يعكس طبيعة الحياة الصحراوية. وبذلك، يفتح البحث مجالاً جديداً لتحليل الإيقاع بوصفه ظاهرة مرتبطة بالسياق البيئي، لا مجرد بنية شكلية منفصلة.

وتبرز أهمية البحث أيضاً في معالجته للبعد النفسي في الشعر الجاهلي، من خلال دراسة ظواهر مثل السراب بوصفها انعكاساً لتجربة إنسانية عميقة تتسم بالقلق والتوق وخيبة الأمل؛ وهذا يسهم في إثراء الفهم النقدي للنصوص الشعرية، عبر الكشف عن الأبعاد الداخلية التي تتجاوز الوصف الخارجي للطبيعة.

إضافة إلى ذلك، يفيد البحث الدارسين والباحثين في مجالات الأدب والنقد والبلاغة، من خلال تقديم نموذج تحليلي يدمج بين البعد البيئي والبلاغي والإيقاعي، مما يعزز مناهج القراءة الشمولية للنصوص الأدبية. كما يمكن أن يشكل منطلقاً لدراسات لاحقة تتناول أثر البيئة في عصور أدبية مختلفة أو في آداب أخرى.

وتتجلى أهمية البحث -أيضاً- في كونه يسهم في إعادة قراءة الشعر الجاهلي قراءة جديدة، تكشف عن عمق التفاعل بين الإنسان وبيئته، وتؤكد أنّ فهم النص الأدبي لا يكتمل إلا باستحضار السياق الذي نشأ فيه، بوصفه عنصراً أساسياً في تشكيل بنيته الجمالية والدلالية.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى استكشاف العلاقة العميقة بين البيئة الصحراوية والشعر الجاهلي، والكشف عن مدى تأثير العوامل المناخية والطبيعية في تشكيل البنية الجمالية والإيقاعية للنص الشعري؛ ويسعى إلى تحقيق عدد من الأهداف، ويمكن تحديدها فيما يأتي:
أولاً- بيان أثر البيئة الصحراوية في تشكيل الذائقة الجمالية لدى الشاعر الجاهلي، من خلال تحليل الصور الشعرية واستجلاء حضور عناصر الصحراء بوصفها مكونات دلالية وجمالية أساسية.

ثانياً- الكشف عن العلاقة بين الأحوال المناخية، مثل الحرارة والرياح والجفاف، وبين البنية الإيقاعية للشعر، وتوضيح الكيفية التي انعكست بها قسوة البيئة في أنماط إيقاعية تتسم بالقوة والصلابة.

ثالثاً- تحليل تأثير البيئة الصحراوية في مضمون الشعر الجاهلي، من خلال دراسة الموضوعات المرتبطة بالرحلة والمعاناة والصبر بوصفها تعبيراً عن تجربة إنسانية متشكلة في ظل ظروف بيئية قاسية.

رابعاً- دراسة ظاهرة السراب بوصفها انعكاساً نفسياً للمناخ الصحراوي، والكشف عن دورها في تشكيل الخيال الشعري وما تحمله من دلالات تتصل بالوهم والقلق وخيبة الأمل.
خامساً- بيان الرموز المناخية في الشعر الجاهلي، مثل الرياح والمطر والشمس، وتحليل دلالاتها الرمزية، وبيان تأثيرها في بناء المعنى داخل النص الشعري.

سادساً- إبراز أثر هذه الرموز المناخية في الإيقاع الداخلي للنص، من خلال دراسة التكرار الصوتي والتوازي الإيقاعي، وربط ذلك بطبيعة البيئة الصحراوية.

سابعاً- تقديم قراءة بلاغية تحليلية تكشف عن التفاعل بين الإنسان وبيئته في إنتاج الخطاب الشعري، وإبراز البيئة بوصفها عنصراً مهماً في تشكيل النص.

ثامناً- الإسهام في تطوير الدراسات النقدية التي تربط بين الأدب والبيئة، من خلال تقديم نموذج تطبيقي يمكن الاستفادة منه في دراسة نصوص أدبية أخرى.

ويسعى البحث إلى تحقيق تكامل بين التحليل البيئي والبلاغي والإيقاعي والنفسي، بما يفضي إلى فهم أعمق للشعر الجاهلي في سياقه الطبيعي والثقافي.



الدراسات السابقة:

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت الشعر الجاهلي من زوايا لغوية وتاريخية ونقدية، فإنّ كثيراً منها لم يمنح البيئة الصحراوية ما تستحقه من عناية تحليلية عميقة؛ حيث اكتفى بالإشارة إليها بوصفها إطاراً عاماً دون التوغل في أثرها الحقيقي في تشكيل الذائقة الجمالية والخيال الشعري والإيقاع. وأقرب الدراسات التي تتقاطع مع دراستي في عنوانها ما يلي:

- دراسة الدكتور نوري حمود القيسي، بعنوان: "الطبيعة في الشعر الجاهلي"، وهو كتاب طبعته دار الإرشاد ببيروت عام ١٩٧٠م
 - دراسة محمد صديق حسن عبد الوهاب، بعنوان: "الصحراء في الشعر الجاهلي" وهي رسالة دكتوراه في جامعة أم درمان الإسلامية ٢٠٠٨م.
 - دراسة الدكتور أحمد موسى النوقي، بعنوان: "الصحراء في الشعر الجاهلي" وهي كتاب مطبوع عام ٢٠٠٩م.
 - دراسة إسماعيل عبد الرحمن واكد، بعنوان "الصحراء في الشعر الجاهلي: رؤية في المحتوى والفن"، وهي دراسة منشورة في المجلة العربية لعلم الترجمة، العدد ٤، المجلد ٢، عام ٢٠٢٣، ص ٨٠.
 - دراسة إبراهيم أحمد السلوقي، بعنوان "مشاهد الصحراء وأثرها في الشعر الجاهلي والحديث: دراسة وصفية تحليلية موازنة"، وهي دراسة منشورة في الجمعية الليبية للعلوم التربوية والإنسانية، العدد ٢٤، المجلد ٤.
- وقد ركزت هذه الدراسات على جمع مظاهر الطبيعة في الشعر الجاهلي، واقتصرت على التحليل الموضوعي، في حين أن دراستي لم تكتف بالوصف الموضوعي، بل أعطت تحليلاً عميقاً لكيفية تحول هذه البيئة الصحراوية إلى ذائقة جمالية وإيقاعية مشكلة الوعي النفسي والجمالي لدى الشاعر الجاهلي، وهو ما تبرزه أهداف الدراسة.

حدود البحث:

تحدد حدود البحث بمجموعة من الأطر العلمية التي تضبط مجاله وتوجّه مساره، بما يضمن تركيزه على موضوعه الرئيس دون التوسع في مجالات خارجة عنه؛ ويمكن بيان هذه الحدود على النحو الآتي:

أولاً- الحدود الموضوعية:

يقتصر البحث على دراسة أثر البيئة الصحراوية في تشكيل الذائقة الجمالية والبنية الإيقاعية في الشعر الجاهلي، مع التركيز على العناصر المناخية والطبيعية، مثل: الحرارة والرياح والجفاف

والسرّاب، بوصفها عوامل مؤثرة في الصورة الشعرية والإيقاع والمضمون؛ ولا يتناول البحث البيئات الأخرى أو المراحل الأدبية اللاحقة إلا في حدود الإشارة العابرة التي تخدم التحليل.

ثانيًا- الحدود الزمنية:

ينحصر البحث في الشعر الجاهلي، أي في الفترة السابقة لظهور الإسلام، بوصفها المرحلة التي تجلّى فيها التأثير المباشر للبيئة الصحراوية في تشكيل التجربة الشعرية، دون التوسع في دراسة العصور الإسلامية أو الأندلسية أو الحديثة.

ثالثًا- الحدود المكانية:

يركّز البحث على البيئة الصحراوية في شبه الجزيرة العربية، بوصفها المجال الجغرافي الذي نشأ فيه الشعر الجاهلي، وما يتصل بها من خصائص طبيعية ومناخية أثّرت في حياة الإنسان العربي آنذاك.

رابعًا- الحدود النصية:

يعتمد البحث على نماذج مختارة من الشعر الجاهلي لشعراء بارزين، يتم تحليلها تحليلًا بلاغيًا وإيقاعيًا، دون السعي إلى استقصاء جميع النصوص، وذلك لتحقيق العمق في التحليل بدلًا من الاتساع الكمي.

خامسًا- الحدود المنهجية (منهج البحث):

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي بوصفه الأنسب لدراسة أثر البيئة الصحراوية في الشعر الجاهلي، وذلك لقدرته على الجمع بين الوصف الدقيق للنصوص الشعرية وتحليل مكوناتها الجمالية والإيقاعية والرمزية، ويلتزم البحث بالمنهج الوصفي التحليلي ذي البعد البلاغي والإيقاعي، مع الاستفادة من بعض المقاربات النفسية والرمزية عند الحاجة، دون الدخول في مناهج نقدية أخرى كالبنوية الصرفة أو التفكيكية إلا بقدر ما يخدم موضوع الدراسة.

ويقوم المنهج الوصفي على رصد الظواهر الشعرية المرتبطة بالبيئة الصحراوية، مثل تصوير الأطلال والناقة والحيوانات البرية، وعناصر المناخ كالحرارة والرياح والسرّاب، مع توثيق هذه الظواهر في النصوص وتحليلها ضمن سياقها البيئي والثقافي. ويسمح هذا النهج بفهم العلاقة بين البيئة والمضمون الشعري، وكشف كيف تؤثر خصائص الصحراء في تشكيل الذائقة الجمالية للشاعر وتوجيه اختياراته الأسلوبية والبلاغية.

أما التحليل فهو بلاغي وإيقاعي، يركز على دراسة الصور الشعرية والرموز الطبيعية، مثل: الرياح والمطر والشمس، وفحص دلالتها الرمزية وعلاقتها بالإيقاع الداخلي للنص، من خلال

دراسة التكرار الصوتي، والتوازي الإيقاعي، وتوزيع القوافي، بما يعكس طبيعة البيئة وتأثيرها في البناء الصوتي والمعنوي للقصيدة.

كما يستفيد المنهج من البعد النفسي والرمزي للبيئة، خصوصاً فيما يتعلق بظاهرة السراب، بوصفها انعكاساً نفسياً للمناخ الصحراوي، وتفسير دورها في تكوين الخيال الشعري وتجسيد القلق والتوتر والخيبة.

فيجمع منهج البحث بين الوصف الواقعي للبيئة وتحليل النص شعرياً وبلاغياً وإيقاعياً ونفسياً، وهذا يتيح قراءة شاملة للنصوص الجاهلية التي تكشف أثر البيئة الصحراوية في تكوين الصور والرموز والإيقاعات، وتوضح كيف أصبح الإنسان والصحراء متفاعلين في إنتاج خطاب شعري متكامل.

وقد اشتمل البحث في هيكليته على أربعة مباحث، وكل مبحث مؤلف من بعض المطالب، وهي وفق ما يلي:

المبحث الأول: البيئة الصحراوية وتشكيل الذائقة الجمالية، وقد اشتمل على:

المطلب الأول: تجليات الصحراء في الصورة الشعرية.

المطلب الثاني: البنية البلاغية للصورة الصحراوية.

المطلب الثالث: القيم الجمالية المتولدة عن الصحراء.

المبحث الثاني: الأحوال المناخية وتأثيراتها في الإيقاع والمضمون، واشتمل على:

المطلب الأول: أثر المناخ في الإيقاع الشعري.

المطلب الثاني: أثر المناخ في المضمون الشعري.

المبحث الثالث: السراب والخيال، انعكاسات نفسية للمناخ الصحراوي، واشتمل على:

المطلب الأول: تجليات السراب في الخيال الشعري.

المطلب الثاني: البعد النفسي للخيال الصحراوي.

المبحث الرابع: الرموز المناخية في الشعر الجاهلي وتأثيراتها في الإيقاع الشعري، واشتمل على:

المطلب الأول: الدلالات الرمزية للعناصر المناخية.

المطلب الثاني: أثر الرموز المناخية في الإيقاع.

الخاتمة: وفيها عرض لأهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: البيئة الصحراوية وتشكيل الذائقة الجمالية

المطلب الأول: تجليات الصحراء في الصورة الشعرية:

تعدّ الأطلال والديار المهجورة من أبرز الصور الشعرية التي استخدمها الشعر العربي الجاهلي لتجسيد تجربة الفناء والزوال، وللتعبير عن هشاشة الحياة الإنسانية أمام قسوة الطبيعة الصحراوية، فالبيئة الصحراوية - بما فيها من اتساع وجذب وحرارة قاسية - جعلت من المكان عنصراً مركزياً في مخيلة الشاعر، تتحول الأطلال من مجرد بقايا معمارية إلى رمز للزمن المار والفناء الإنساني، و"البيئة الصحراوية شكّلت مادة خصبة للشعر الجاهلي"^(١)، و"الصورة الشعرية هي رسم لوحات حيوية تعبّر عن انفعالات الإنسان ومشاعره سواء أكانت حسية أم متخيلة، تكشف براعة الشاعر وقدرته وحسن ذوقه على التأثير في المتلقي وإثارة تخيله في الذهن والواقع بألفاظ جميلة ومعاني جديدة"^(٢)، كما أنّ "الصورة التشبيهية إحدى الوسائل الفنية التي استعان بها الشاعر الجاهلي في التعبير عن أفكاره الشعرية إلى جانب كثير من الصور الفنية الأخرى كالاستعارة والكناية ومختلف أنواع البديع"^(٣).

وتبرز تجربة الشاعر لبید بن ربیعة بوصفها نموذجاً دالاً على أثر البيئة الصحراوية في تشكيل الصورة الشعرية، ففي قوله:

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلَّها فَمَقامُها بِمَنى تَأَبَّدَ عَوْلُها فَرِجامُها^(٤)

يتجلّى حضور الصحراء بوصفها فضاءً للاندثار والتحوّل؛ إذ تبدأ الصورة بالفعل (عفت)، الذي يفيد الطمس والزوال، فيحيل إلى طبيعة البيئة التي تمحو آثار الإنسان سريعاً؛ فالديار - وهي رمز الاستقرار والحياة - تتحول إلى موطن للغول والوحوش، ما يعكس هشاشة الوجود الإنساني أمام جبروت الطبيعة، وإنّ ذلك التحوّل الدلالي من (الديار) إلى (الغول) يكشف عن ثنائية الحياة والموت والعمران والخراب، وهي ثنائية متجذرة في التجربة الصحراوية؛ حيث

(١) واكد، إسماعیل عبد الرحمن: الصحراء في الشعر الجاهلي: رؤية في المحتوى والفن، المجلة العربية لعلم الترجمة، العدد ٤، المجلد ٢، عام ٢٠٢٣، ص ٨٠.

(٢) إبراهيم، صاحب الخليل: الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م، ص ٢٠.

(٣) عيكوس، الأخضر: الأبعاد الفنية للصورة التشبيهية في الشعر الجاهلي، مجلة جامعة قسطنطينة للعلوم الإنسانية، العدد ٥، لعام ١٩٩٤م، ص ١.

(٤) العامري، لبید بن ربیعة، ديوان لبید، دار صادر بيروت، د. ت، ص: ١٦٣.

يتجاوز البقاء والفناء على نحو دائم، و"كل شيء في هذه الصحراء قاسٍ وعنيف فلا عجب أن تنجب أبناء أشد قساوة يألّفونها ويحيون فيها"^(٥).

وتتجلى وظيفة الأطلال بوصفها مؤشراً على الزوال والتحول؛ فالديار التي كانت مكان حياة وعمران أصبحت مأوى للوحوش والغول، واختيار كلمة (عفت) يعكس الطمس والاندثار، بينما يشير حضور الغول إلى استمرار الزمن الطبيعي على حساب الإنسان، من منظور البلاغة الحديثة، يمكن قراءة هذا النص ضمن مفهوم المفارقة الزمنية أي "الخروج عن الترتيب الطبيعي للزمن سواء بعودة الأحداث أم محاولة استقراء لحظة المستقبل إلى الوراء"^(٦)، تتجاوز مفردات تدل على البقاء (الغول) مع مفردات الفناء (الديار)، لتوليد إحساس مأساوي عميق. ومن حيث التحليل البلاغي تقوم الصورة على تشخيصٍ ضمّنٍ للطبيعة؛ فالغول يتأبد، أي يخلد ويمتد زمنه، في مقابل فناء الإنسان، وهنا تتجلى المفارقة الزمنية التي تعكس إحساس الشاعر بتفوق الطبيعة على الكائن البشري في البقاء، كما أنّ اختيار مفردات ذات جرسٍ قويٍّ كـ (تأبد، رجاءها) يسهم في خلق إيقاعٍ صلبٍ يتناسب مع صلابة البيئة ذاتها، وكأنّ البنية الصوتية للنص تحاكي خشونة الصحراء وجفافها، وهو ما يبرز المستوى الإيقاعي، في اختيارهما، ويكشف عن علاقة عضوية بين الصوت والمعنى في أيقونية صوتية، إذ يحاكي الإيقاع صلابة البيئة الصحراوية، فالتركيبة الصوتية الثقيلة تعكس خشونة المكان، مما يجعل الإيقاع جزءاً من الدلالة، وليس مجرد عنصر شكلي.

والأطلال مرآة للذاكرة الإنسانية -في الشعر الجاهلي- وغالباً ما يرتبط ذكر الأطلال باستحضار الماضي والحب الضائع والخسارة، وهو ما يعكس البعد النفسي العميق للصحراء بوصفها فضاءً للانعزال والتأمل، و"الشاعر الجاهلي مغرم بالمكان وله علاقات وطيدة به سواء في أرضه أو في غيرها"^(٧)، ويقول امرؤ القيس:

(٥) الخزرجي، علي مهيمن إبراهيم حمزة، الشعراء الجاهليون والعوامل المؤثرة في شعرهم، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، مجلد ٢، العدد ٧، ٢٠٢١، ص ٥.

(٦) قادر، فاضل محمد، ومحمد، شيدا مجيد: المفارقة الزمنية في رواية سيدات زحل للروائية لطيفة الدليمي، دراسة تحليلية مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد ٣١، العدد ٢، ٢٠٢٣، ص ١٩.

(٧) المعمري، فواز، الأبعاد الجمالية للمكان في القصيدة العربية، دراسة في بعض النماذج من الشعر الجاهلي، مجلة كلية الآداب واللغات، الجزائر جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد ٢٢، جانفي ٢٠١٨م، ص ٢٣٨.

قَفَا نَبَكٍ مِنْ ذِكْرَى حَيِّبٍ وَمَنْزِلٍ بِسْفَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ^(٨)
 هنا تتحوّل الأطلال إلى عنصر شعوري مركزي يعكس فقدان والحزن في تجسيد رمزي،
 فالوقوف على الأطلال فعل وجداني يؤكد ارتباط الإنسان بالزمان والمكان، ونرى في البيت
 توظيفاً واضحاً للصورة الحسية كوسيط نفسي، تُمثل الأطلال حالة وجدانية ملموسة، ويعكس
 التكرار الصوتي للحروف الساكنة نوعاً من السكون والجمود المقابل لمفهوم الفناء، تُمنح الطبيعة
 بعداً إنسانياً، مما يتيح للشاعر التعبير عن تجربته الداخلية بطريقة غير مباشرة.
 وتمثّل الديار المهجورة تجسّداً للصراع بين الإنسان والطبيعة الصحراوية القاسية، فالبيئة
 الصحراوية بفقرها في الماء والموارد تجبر الإنسان على التنقل والرحيل، ومع الزمن تتحول
 مساكنه إلى أطلال، فتغدو الديار رمزاً لأثر الطبيعة على الإنسان بصورة عامة ورمزاً مركزياً
 متعدد الطبقات، إذ تجمع بين الزوال والفناء وبين الذاكرة والحزن في حالة الصراع مع الطبيعة؛
 "لأنّ الشاعر الجاهلي باعتباره إنساناً كان يتجاذبه عاملان قويان، العامل الأول عامل الفناء،
 العامل الثاني: عامل البقاء، عامل الفناء يتمثّل في الرياح والعواصف وغيرها، وعامل البقاء
 يتمثّل في حبّ المرأة"^(٩).

وتتيح قراءة الأطلال بوصفها شبكة دلالية متكاملة، إذ لا يقتصر دورها على التمثيل الحسي
 للمكان، ولكن يتعداه لتشمل المعنى النفسي والفلسفي؛ فالديار المهجورة تجمع بين: المعنى
 الحسي: الخراب والبقاء المادي للمكان، والمعنى النفسي: الحزن والفقد والحزن، وكذا الحال في
 المعنى الرمزي: الفناء والزوال، وتفوّق الطبيعة على الإنسان.

ويمكن القول: إنّ الأطلال والديار تشكل قلب الصورة الصحراوية في الشعر العربي
 الجاهلي، إذ تتحوّل إلى رمز يربط الإنسان بمكانه، وتذكّره بالزمن والمصير، ويمنح النص طابعاً
 وجودياً يعكس تجربة الإنسان في البيئة الصحراوية التي تمثل نسقاً بلاغياً متكاملًا، تتداخل فيه
 الصورة والإيقاع والرمز، لتشكيل بنية جمالية خاصة بالشعر الجاهلي.

(٨) الكندي، امرؤ القيس، ديوانه، دار صادر، بيروت، د ت، ص: ٢٩.

(٩) السلوقي، محمد إبراهيم: مشاهد الصحراء وأثرها في الشعر الجاهلي والحديث، دراسة وصفية تحليلية موازنة،
 الجمعية الليبية للعلوم التربوية والإنسانية، العدد ٢٤، المجلد ٤، ص ٢٢٣.

المطلب الثاني: البنية البلاغية للصورة الصحراوية.

تُعدّ الصورة الصحراوية في الشعر العربي الجاهلي بنية بلاغية مركّبة، ترتكز إلى آليات لغوية وفنية، منها: التشبيه والاستعارة والاقتصاد اللغوي والتكثيف الدلالي، وتقوم تلك الآليات على تحويل المشهد الطبيعي القاحل إلى صور شعرية غنية بالدلالات النفسية والوجودية؛ لتغدو عنصرًا فعليًا في تشكيل المعنى وإيصال التجربة الإنسانية، والتشبيه هو "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى" (١٠)، و"إخبار بوجود الشبه، والشبه هو اشتراك الطرفين في صفة أو أكثر يظل كل واحد منهما غير الآخر" (١١)، وهو "عقد مماثلة بين شيئين أو أشياء لاشتراكهما في معنى ما بأداة ملفوظة أو ملحوظة، وذلك لغرض مقصود" (١٢)، والاستعارة " مجاز لغوي لا عقلي، كونها موضوعة للمشبه به" (١٣).

وتعتمد تلك البنية على بلاغة تقوم على التداخل الدلالي بين الظاهرة الطبيعية والوعي البشري، تتداخل الأصوات والصور والرموز في شبكة معقدة تُنتج كثافة جمالية عالية؛ فالصورة في الشعر الجاهلي أداة لإعادة صياغة الواقع بطريقة تجعل الطبيعة مرآة للمشاعر الإنسانية، "وتعدّ الناقّة أبرز الكائنات الحية الصحراوية القادرة على التأقلم في البيئة الصحراوية، ولأثباتها قدرة على تحمّل صعاب الصحراء، وظّفها الشعراء الجاهليون بصور ودلالات ورموز مختلفة" (١٤).

(١٠) الصعدي، عبد المتعال: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، الجزء الثالث في علم البيان، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٩م، ص ٧، والقزويني، الخطيب: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق غريد الشيخ محمد وإيمان الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، ص ١٤٧.

(١١) د. عصفور، جابر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢، ص ١٧٣.

(١٢) لبيهي، هناء: الآليات البلاغية الحجاجية في المعلقات، معلقتا عمرو بن كلثوم وزهير بن أبي سلمى أنموذجاً، رسالة ماجستير، مقدمة لجامعة الشهيد حمه لخضر الوادي في الجزائر، في العام الدراسي، ٢٠١٤-٢٠١٥م، ص ٥٥.

(١٣) الصعدي، عبد المتعال: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، الجزء الثالث في علم البيان، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٩م، ص ٩٩.

(١٤) واكد، اسماعيل عبد الرحمن: الصحراء في الشعر الجاهلي، رؤية في المحتوى والفن، المجلة العربية لعلم الترجمة، العدد ٤، المجلد ٢، عام ٢٠٢٣، ص ٨٢.

وإنّ الذائقة الجمالية التي تبلورت في ظلّ الصحراء تتسم بالميل إلى الصور الحسية المباشرة والاقتصاد في الزخرف اللفظي والتركيز على المفردات ذات الدلالة الكثيفة، والشعراء "يقتبسون من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأفصحها"^(١٥)، فالاتساع المكاني للصحراء يقابله اتساع في التأمل الوجودي، والقحط الطبيعي يقابله تركيز لغوي خالٍ من التعقيد كما أنّ حضور عناصر محدودة في البيئة (كالناقة والديار والرياح والوحوش) جعلها تتحوّل إلى رموز مركزية متكررة، تؤدي وظائف دلالية متعددة داخل النصّ الشعري عموماً في اقتصاد التعبير والتخييل البيئي، "والخيال يرسم الصورة عند المتلقي"^(١٦)، عندما يستقي الشاعر معانيه من الطبيعة، ويعيد إنتاجها داخل بنية رمزية؛ وهو ما يجعل النصّ الشعريّ فضاءً لتجربة إنسانية تتجاوز حدود المكان إلى آفاق فلسفية واسعة، و"قال ماثيو أرنولد: "والشاعر يجب أن يفهم الحياة والعالم فهماً صحيحاً عميقاً شاملاً لتستمد من ذلك قوته المبدعة غذاءها الصالح"^(١٧)، ولعلّ مثال ذلك قول الشاعر طرفة بن العبد:

وإني لأمضي لهم عند احتضاره بعوجاء مرقالٍ تروح وتغتدي

أمون كألواح الإران نضأتها على لأحِب كأنه ظهْرُ بُرْجِدٍ^(١٨)

يمثل البيتان نموذجاً دالاً على تداخل البنية التصويرية مع التجربة النفسية في الشعر العربي الجاهلي، تتجاوز الصورة وظيفة الوصف الخارجي لتغدو بنية دلالية عميقة، تكشف عن علاقة الإنسان ببيئته الصحراوية، ويبرز النصّ بوصفه وحدة دلالية متكاملة ضمن شبكة من العلاقات الداخلية التي تربط بين الصورة والإيقاع والدلالة النفسية، فتتخذ الناقة موقعاً مركزياً، إذ تتحوّل من عنصر واقعي إلى المعادل الموضوعي، تُجسّد حالة الشاعر النفسية، وتُسهّم في التعبير عنها، وجاء قوله: (أمضي لهم) ليكشف عن فعل مقاومة، تتحقق عبر الحركة، وهو ما يتجسّد في وصف الناقة بمرقال، وما يرتبط بها من أفعال دالة على الاستمرار، مثل تروح وتغتدي، والفعل المضارع هنا يدلّ على الحركة والحيوية والتجدّد، فتتأسس الصورة على دينامية حركية

(١٥) الخزرجي، علي مهيم إبراهيم حمزة، الشعراء الجاهليون والعوامل المؤثرة في شعرهم، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، مجلد ٢، العدد ٧، ٢٠٢١، ص ١٧.

(١٦) الأصفهاني، عماد الدين، أثر البيئة في إنتاج الصورة التشبيهية في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر، مجلة الآداب، ملحق العدد ١٤٧، كانون الأول، ١٤٤٥/٢٠٢٣، ص ٥٩.

(١٧) عازار، نسيب: نقد الشعر في الأدب العربي، منشورات دار المكشوف بيروت، ١٩٣٩، ص ٢٨.

(١٨) ابن العبد، طرفة، ديوانه، شرحه: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ٢٠٠٢، ص: ٢٠.

واضحة، تتكاثر الأفعال التي توحى بالانتقال والديمومة، مما يخلق إيقاعاً داخلياً متسارعاً، يعكس حالة التوتر النفسي التي يحاول الشاعر تجاؤها، فالحركة وسيلة دلالية لنقل المعنى النفسي من مستوى التجريد إلى مستوى التجسيد الحسي، وهو تحويل المعنى إلى بنية إيقاعية. أما التشبيه في قوله: (كألواح الإران) و(كأنه ظهر برجد) فيمثل بنية إدراكية مركبة، تسهم في بناء تصور بصري متكامل يقوم على الصلابة والاستواء والامتداد، واختيار (ألواح) يوحي بالتماسك، في حين يضيف (الإران) بعداً حيوانياً يرتبط بالقوة والخفة، مما يمنح الصورة طابعاً مركباً، يجمع بين الثبات والحركة، وتُعد تلك الظاهرة من أبرز ما تدرسه البلاغة الحديثة تحت مفهوم الاستعارة الإدراكية؛ حيث يعاد تشكيل الواقع عبر علاقات ذهنية تربط بين عناصر مختلفة لإنتاج معنى جديد.

كما يبرز الفضاء الصحراوي في قوله: (على لاحب) بوصفه عنصراً دلاليّاً فاعلاً، إذ يشير إلى طريق واضح ممتد، يتناغم مع حركة الناقة واستمرارها، مما يعكس حالة من التوافق بين الذات والبيئة، ويؤكد هذا التفاعل أنّ الصورة الشعرية إعادة تشكيل لها في ضوء التجربة الإنسانية.

وعلى مستوى اللغة، تتسم الأبيات بدرجة عالية من الاقتصاد اللغوي والتكثيف الدلالي، تُؤدي معاني واسعة بألفاظ محدودة، وهو ما يتوافق مع طبيعة البيئة الصحراوية القائمة على الندرة، وينعكس في بنية التعبير الشعري من خلال التركيز والاختزال، وهذا ما تنظر إليه بوصفه سمة جمالية تقوم على تكثيف المعنى وتعدد مستوياته داخل النص الواحد.

ويسهم البيتان في البوح عن بنية شعرية تتداخل فيها الحركة والإيقاع والرمز لتشكّل خطاباً، يعبر عن تجربة إنسانية عميقة، تتحول الناقة إلى رمز للصمود، والحركة إلى تعبير عن مقاومة الهم، والفضاء الصحراوي إلى إطار دلالي يعكس امتداد التجربة والكشف عن أبعاده النفسية والوجودية.

المطلب الثالث: القيم الجمالية المتولدة عن الصحراء.

تعدّ الصحراء في الشعر العربي الجاهليّ أكثر من مجرد فضاء طبيعي؛ فهي مصدر لتوليد قيم جمالية وفكرية عميقة، تترسّخ في الذائقة الشعرية العربية، وتشكّل بعداً رئيساً لفهم النصوص الجاهلية، فالصحراء بما تحمله من اتساع وقسوة وجفاف تولّد مجموعة من القيم الجمالية المتسقة مع طبيعة البيئة القاسية، ويمكن تقسيم هذه القيم إلى البساطة والصفاء والصلابة، فضلاً عن ثنائيات وجودية مثل: الحياة والموت والحضور والغياب، التي تنعكس في الصورة الشعرية

والبلاغة الحديثة، وتتبع البساطة من طبيعة الصحراء المفتوحة والخالية من الزخارف الطبيعية المعقدة، يضطر الشاعر إلى استخدام لغة مقتصدة ومباشرة، تعكس نقاء البيئة وصراحتها في التعبير، كما ينبع الصفاء من نقاء المشهد الصحراوي وخلوه من التشويش، والصلابة مرتبطة بقسوة المناخ وجفاف الأرض، وتنعكس على حياة الإنسان والحيوان على حد سواء، وقد "وظّف الصحراء مثلاً كاستجابة نفسية لحاله كي يغالب جانب القحط والجفاف" (١٩)، وقد جاء قول امرئ القيس في معلقته:

ترى بحر الأرام في عرصاتنا وقيعانها كأنه حبّ فلفل (٢٠)
البيت السابق لامرئ القيس نموذج بالغ الدلالة على كيفية توليد القيم الجمالية من بيئة الصحراء، في ضوء تفاعل عميق بين البيئة الصحراوية والذائقة الجمالية، تُقدّم الصحراء بوصفها منبعاً لتشكيل الحسّ الجمالي القائم على الدقة البصرية والملاحظة الدقيقة والتكثيف الدلالي. ويعتمد البيت على تشبيه بليغ محكم، يشبّه الشاعر بحر الظباء المنتشر في أرض الصحراء بحبّ الفلفل، وهذا التشبيه يقوم على عنصرين أساسيين: التشابه في الشكل (الصغر والتكوير) والتشابه في اللون (الاسوداد)، وهو ما يعكس دقة الملاحظة الحسية لدى الشاعر، غير أنّ الأهم من ذلك هو اختيار هذا المشهد نفسه؛ فالصحراء تدفع الشاعر إلى التقاط التفاصيل الصغيرة، وتحويلها إلى عناصر جمالية ذات قيمة، وهنا يتجلى أثر المناخ في تشكيل الرؤيا؛ فالقسوة والاتساع يولّدان حسّاً دقيقاً، يلتقط الجزئيات ويضخمهما فيّاً.

ومن القيم الجمالية المتولدة عن البيئة الصحراوية، يظهر في البيت مبدأ الجمال في الدقة، تتحول العناصر الصغيرة (كالبعر) إلى موضوع للتأمل الفني، كما تتجلى قيمة المقابلة بين القبيح والمستحسن؛ فالبعر يُعاد تشكيله عبر التشبيه ليكتسب قيمة جمالية مستمدة من مشابهته لحبّ الفلفل، هذا التحويل من القبيح إلى الجميل يعكس قدرة الشاعر الجاهلي على إعادة إنتاج الواقع ضمن منظومة جمالية خاصة.

وضمن إطار البلاغة الجديدة، فإنّ البيت بناء دلالي، يعكس علاقة الإنسان بالبيئة الصحراوية، فالصحراء نظام إدراكي يفرض على الشاعر طريقة معينة في الرؤيا، وهي رؤيا تقوم

(١٩) المعمرى، فواز، الأبعاد الجمالية للمكان في القصيدة العربية، دراسة في بعض النماذج من الشعر الجاهلي، مجلة كلية الآداب واللغات، الجزائر جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد ٢٢، جانفي ٢٠١٨م، ص ٢٤٩.

(٢٠) الكندي، امرؤ القيس، ديوانه، دار صادر، بيروت، د ت، ص ٣٠.

على التجزئة والتركيز والتكثيف، وإنَّ الانتقال من بحر الآرام إلى حبِّ الفلفل يمثل عملية تحويل رمزي، يتم فيها إعادة إنتاج الواقع عبر شبكة من العلاقات التشبيهية التي تربط بين عناصر متباعدة في الأصل.

كما يمكن أن نلمح تعبيراً عن اقتصاد الصورة في البيئة الصحراوية؛ فندرة الموارد تقابلها كثافة في الدلالة، يتم اختزال المعنى في صورة واحدة مكثفة، فبدل الوصف المطول، يلجأ الشاعر إلى صورة واحدة تُحيل إلى منظومة من المعاني، فتتحقق بذلك الكثافة الدلالية.

إنَّ القيم الجمالية هنا تنبع من الصحراء ذاتها: فالفراغ يولّد التركيز، والقسوة تولّد الدقة، والاتساع يولّد القدرة على الملاحظة البصرية العميقة؛ لا يمكن فصل الجمال الشعري عن البيئة المناخية التي أنتجته، إذ تتحول الصحراء إلى منبع للرؤيا الجمالية لا مجرد فضاء جغرافي، وهكذا يكشف البيت عن وعي شعري متقدم يجعل من الطبيعة مصدراً لتشكيل الحسّ الفني وبناء الصورة الشعرية المكثفة.

المبحث الثاني: الأحوال المناخية وتأثيراتها في الإيقاع والمضمون:

المطلب الأول: أثر المناخ في الإيقاع الشعري.

تُعدّ الأحوال المناخية في البيئة الصحراوية من أهم العناصر التي أسهمت في تشكيل البنية العميقة للشعر الجاهلي، فقد كانت قوى فاعلة، تُنتج المعنى، وتعيد تشكيله داخل النص، فالحرّ الشديد والجفاف والمطر والرياح، تتحول إلى أنساق دلالية، تُعبّر عن التجربة الوجودية للإنسان العربي في مواجهة الطبيعة، ومن ثمّ، يمكن القول: إنّ المناخ الصحراوي شكّل نظاماً رمزياً متكاملًا، تداخل فيه الحسي والنفسي، والواقعي والمتخيّل، لينتج خطاباً شعرياً يتميز بالكثافة والعمق.

فالمناخ غدا بنية دلالية مؤلّدة للمعنى، وارتبطت الظواهر المناخية ارتباطاً وثيقاً بالحالة النفسية للشاعر الجاهلي، إذ أصبح المطر رمزاً للخصب والنماء، في حين غدا الجفاف معادلاً موضوعياً للقحط والحرمان، وهذا التحول من الدلالة الطبيعية إلى الدلالة الرمزية، يمثل إعادة الترميز، يُعاد إنتاج الظاهرة الطبيعية داخل نسق دلالي جديد يتجاوز معناها المباشر، والأحوال المناخية في الشعر الجاهلي تمثّل عنصراً بنيوياً أساسياً في تشكيل المضمون والإيقاع، وتتحول إلى رموز ودلالات تعكس التجربة الإنسانية في الصحراء، ومن خلال شعر امرئ القيس، نرى كيف يتداخل المناخ مع اللغة والصوت والصورة، لينتج خطاباً شعرياً غنياً بالمعاني، في قوله:

كَأَنَّ نَبِيرًا فِي عَرَانِينَ وَبَلِّهِ كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مُرْمَلٍ (٢١)
نجد أنَّ الشاعر يوظف التشخيص؛ حيث يتحوّل الجبل إلى إنسان يرتدي عباءة، وهذا التحول يمثل انتقالاً من الوصف إلى التخيل، إذ تصبح الطبيعة كائنًا حيا، والمطر لا يغيّر المشهد، ولكن يعيد تشكيله، مما يجعل الصورة الشعرية قائمة على التحوّل، وهو عنصر أساسي في تولّد دلالة من الحركة والتغير، ويتجاوز تأثير المناخ حدود الصورة الجزئية إلى تشكيل الإيقاع العام للنص، مما يسهم في بناء العلاقة الوثيقة بين الظاهرة الطبيعية والبيئة اللغوية وتشكيل الذائقة الجمالية في قصائد الشعر العربي الجاهلي؛ فالصحراء -بمناخها القاسي والمتقلب- أحد أهم مصادره الجمالية والدلالية، والمناخ الصحراوي القاسي يعكس حتمية التحمل والمعاناة المستمرة، فالشاعر الجاهلي يربط بين صعوبة البيئة وصعوبة الحياة.

ويقوم البيت على تشبيه تمثيلي دقيق، يُشَبَّه الشاعر جبل ثبير -وقد غمره المطر الغزير- بشيخ عظيم من الناس، يلتفّ في كساء (بجاء) مزمل، والصورة هنا لا تعتمد على عنصر مفرد، وإنما على هيئة مركبة تشمل الكتلة والثقل والاستقرار والتغطي، وهي عناصر تبرز في حالتي الجبل والإنسان على السواء، فعرانين وبله توحى بشدة المطر وانهماره، في حين (مزمل) تحيل إلى الالتفاف والاحتجاب، وهو ما يضيفي على الصورة بعداً حركياً محسوساً.

وإذا التفتنا إلى الجانب الصوتي في النص، نجد أن اختيار الألفاظ مثل (ثبير وعرانين ووبله) تبرز نغمة صوتية، تتسم بالانفتاح والامتداد، وهو ما يوازي اتساع المشهد الطبيعي، كما أنَّ تتابع الحروف (الياء، الراء، النون) ينسجم بمعطيات صفاتها الصوتية مع الإيقاع الانسيابي للمطر، في حين تمنح الحروف المجهورة ثقلًا صوتيًا، يعكس كثافة المشهد، وهنا يظهر أثر المناخ في الإيقاع، إذ يتحول المطر من مجرد عنصر وصفي إلى قوة تُشكّل موسيقى البيت الداخلية.

وأما من منظور البلاغة الحديثة، فإنّ البيت يبرز بنية رمزية تتجاوز حدود التشبيه التقليدي، فالمطر الكثيف الذي يغمر الجبل، يُقدّم قوة كونية تعيد تشكيل العلاقة بين الإنسان والطبيعة، فالجبل -رغم صلابته- يبدو وكأنه يلبس هيئة إنسان، فيتحوّل إلى كائن حيّ مغطى بالمطر، تمامًا كما يلتف الإنسان في كسائه طلبًا للحماية، وهذا التوازي بين الجبل والإنسان يكشف عن نزعة إنسانية في رؤية الطبيعة، تُمنح العناصر الجغرافية صفات بشرية.

(٢١) الكندي، امرؤ القيس، ديوانه، دار صادر، بيروت، دت، ص: ٦٢. وثبير: جبل عظيم قرب مكة.

ويصبح المناخ عنصرًا مولدًا للإيقاع بوصفه قوة تنظم توزيع الأصوات داخل البيت، فالإيقاع يتعزز بإيقاع دلالي مرتبط بالمطر: تكرار الأصوات وانسيابها وتكثفها وهو يقابل حركة الماء وانهماره، وهذا ما يجعل الإيقاع الشعري في البيت إيقاعًا مناخيًا مستمدًا من طبيعة الظاهرة الموصوفة.

ويمكن القول: إن البيت يؤسس لعلاقة بنيوية بين المناخ واللغة، فالمطر يتجلى في بنية الصوت وفي توزيع المقاطع وفي اختيار الألفاظ، وإننا أمام خطاب شعري تتداخل فيه العناصر الثلاثة: المناخ (كمصدر)، واللغة (كوسيط)، والإيقاع (كنتيجة جمالية)، وهكذا تتحول الطبيعة إلى منظومة دلالية تولّد الإيقاع، ويغدو الصوت انعكاسًا للحالة المناخية لا مجرد أداة تعبير عنها.

وإنّ هذا التداخل بين المناخ والإيقاع يكشف عن عمق التجربة الشعرية عند امرئ القيس، فلا يفصل الوصف عن الموسيقى، ولا تنفصل الصورة عن الصوت، فالمطر الذي يثقل الجبل هو ذاته الذي يثقل الإيقاع، فيمنح البيت إيقاعًا بطيئًا ممتدًا، يتناسب مع ثقل المشهد، وبهذا يتحقق ما يمكن تسميته بـ"التكافؤ الإيقاعي الدلالي"؛ حيث تتطابق بنية الإيقاع مع طبيعة المعنى، في انسجام نادر يجمع بين الحسّ والجمال والدلالة.

ويمكننا أن نلمح العلاقة بين الصوت والمعنى، وهو ما يظهر بوضوح في الشعر الجاهلي عند تصوير الظواهر المناخية عبر الأيقونية الصوتية وبناء الإيقاع المناخي و"أساس الإيقاع مجموعة المقاطع الصوتية^(٢٢)"، والأيقونية الصوتية تكشف العلاقة بين الصوت والدلالة، وإنّ للحركات الطويلة منها والقصيرة دورًا مؤثرًا في تحديد المعنى وتنويعه^(٢٣)، كما أنّ "الصيغة الإيقاعية في الشعر العربي الجاهلي تمثل ضربًا متقدمًا معقدًا بالقياس إلى البدايات الوزنية الأولى"^(٢٤)، وتلك الأيقونية الصوتية تبرز من خلال التوازي بين الصوت والمعنى، إذ يصبح الإيقاع انعكاسًا للظاهرة الطبيعية، فالمطر بما يتميز به من انسياب وتدفق، ينعكس في إيقاع لين متواصل، في حين أنّ الجفاف والحرّ غالبًا ما يُعبّر عنها بإيقاع متقطع أو جاف يعكس القسوة والانقطاع، وإنّ الإيقاع في الشعر الجاهلي، لا يُفهم بوصفه عنصرًا شكليًا، لكنّه جزء من البنية الدلالية للنص في الشعر الجاهلي، فيسهم في إنتاج المعنى وتعزيزه.

(٢٢) جمال الدين، مصطفى: الإيقاع في الشعر العربي من البيت إلى التفعيلة، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧، ص ٤.

(٢٣) هادف، بوزيد ساسي، الدلالة الصوتية عند ابن جني من خلال كتابه الخصائص، مجلة حوليات التراث، العدد التاسع، لعام ٢٠٠٩، ص ١٦٣.

(٢٤) الوجي، عبد الرحمن: الإيقاع في الشعر العربي، ط ١، مطبعة دار الحصاد، دمشق، ١٩٨٩، ص ١٠.

وتقوم كثير من الصور الشعرية في الشعر الجاهلي على ثنائية أساسية هي: المطر والجفاف، وهي ثنائية تعكس صراعاً وجودياً بين الحياة والموت، فالمطر يمثل الخصب والنماء، في حين يمثل الجفاف القحط والفناء، وتلك الثنائية تُبنى عليها شبكة معقدة من الدلالات، ففي سياق الصحراء، يصبح المطر حدثاً استثنائياً، يحمل معه الأمل والتجدد، بينما يشكل الجفاف الحالة الأصلية التي يعيشها الإنسان، وإنّ حضور المطر في النصوص الشعرية غالباً ما يكون مشحوناً بدلالات الفرح والانفراج، في حين أنّ غيابه يعبر عن الحزن والضيق؛ وهذا التوتر بين الحالتين يخلق الطاقة الدلالية للنص الشعرية والمعاني عمومًا، يُبنى المعنى على التفاعل بين التقيضين، ويكسب المعنى قيمة فنية في أعمال العقل بين المتناقضات، كما أنّ هذه الثنائية تعكس وعي الشاعر بطبيعة الوجود، يتجاوز البقاء والفناء والخصب والقحط، في تجربة إنسانية واحدة.

ولا يقتصر تأثير المناخ على المستوى الجزئي للنص، لكنّه يمتد إلى بنيته الكلية، يسهم في تشكيل الإيقاع الوجودي؛ فالشعر الجاهلي -في كثير من نصوصه- يعكس حركة دائمة بين الشدة والرخاء وبين الجفاف والمطر، وهو ما ينعكس في إيقاعه العام، فالمقاطع التي تصف الرحلة في الصحراء غالباً ما تتسم بإيقاع سريع متتابع، يعكس حركة الترحال، في حين أنّ المقاطع التي تصف المطر أو الوقوف على الأطلال تتسم بإيقاع أبطأ، يعكس التأمل والسكون، وهذا التنوع الإيقاعي يعكس التغيرات المناخية نفسها، مما يجعل النص الشعري بمثابة مرآة للحياة الصحراوية بكل تقلباتها.

المطلب الثاني: أثر المناخ في المضمون الشعري.

التخييل المناخي أداة لإنتاج المعنى، فالشاعر الجاهلي لم يكن يصف المناخ، وإنما كان يتخيّله، أي يعيد إنتاجه داخل النص بطريقة رمزية، فالسراب والمطر والرياح، كلها تتحول إلى أدوات للتعبير عن حالات نفسية وفكرية، إذ يتم تجاوز الواقع لإنتاج معنى جديد، فالمطر يرمز إلى الخلاص أو التجدد، في حين أنّ الجفاف قد يرمز إلى الضياع أو الفقد، هذا التوظيف الرمزي للمناخ يجعل النص الشعري متعدد الدلالات، وقابلاً للتأويل، وهو ما يمنحه عمقاً جمالياً، ولعلّ الترحال والسفر المتواصل في الصحراء يمثلان عنصراً مركزياً في تجربة الشاعر البدوي، والرحلة تجربة وجودية تؤثر في الذائقة الجمالية والمضمون الشعري، ومن ذلك ما قاله الشاعر بشر بن أبي خازم:

فَكَأَنَّ طَعْنَهُمْ غَدَاةً تَحْمَلُوا سَفُنٌ تَكْفَأُ فِي خَلِيجٍ مَغْرَبٍ (٢٥)
الرحلة هنا تنعكس على الإيقاع النفسي للشاعر، والرياح والرمال المتطيرة تعكس القلق الداخلي والصعوبات الخارجية، مما يجعل الرحلة رمزاً للصبر والتحمل والمواجهة، والبيت السابق نموذج دالّ على أثر المناخ (البيئة الصحراوية) في تشكيل المضمون الشعري وبناء الصورة، وهو يبرز البيئة المناخية في الصحراء أنها فاعل ثقافي وجمالي، يُعيد تشكيل الخيال الشعري، فالرحلة في الصحراء تفرض على الشاعر رؤيا خاصة للعالم، تتجسد في الصور الشعرية التي تمزج بين الواقع المألوف (الصحراء) والخيال المعادل (البحر).

ويقوم البيت على تشبيه تمثيلي دقيق، يُشبه الشاعر رحيل القوم (الظعن) بسفن تتمايل في خليج، وهذا التشبيه يستوعب هيئة مركبة تشمل الحركة والاضطراب والامتداد، فعبارة (سفن تكفأ) تحيل إلى التآرجح وعدم الاستقرار، وهي صورة حركية تنقل إحساساً بالتقلّب، يشبه حركة الركاب على ظهور الإبل في مسير الرحلة، كما أنّ إضافة (في خليج مغرب) تعمّق الصورة، إذ يوحي الخليج بالماء والامتداد، بينما تضيف صفة (مغرب) دلالة الغموض أو الانحدار أو الاتجاه نحو الغروب، بما يعزّز الإيحاء بالحركة نحو المجهول، وهذا التماثل بين بنيتين: بنية القافلة وبنية السفينة يبيّن أنها وسيلة انتقال، وكلاهما عرضة للتمايل ويتحرك ضمن فضاء واسع غير مستقر، غير أنّ هذا التشبيه تحويل تخيلي للواقع الصحراوي إلى فضاء بحري، وهو ما يكشف عن قدرة الشاعر على استدعاء صور غير مباشرة لتعويض قسوة المناخ وتوحّشه. ويمكننا أن نبيّن أنّ البيت تعبير رمزي عن تجربة الاغتراب والقلق الوجودي، فالسفر في الصحراء، بما يرافقه من قسوة المناخ واتساع الفراغ، يُولّد شعوراً بفقدان الثبات، وهو ما يتجسّد في صورة (السفن التي تكفأ)، وهنا لا يعود التشبيه مجرد أداة بلاغية، بل يتحول إلى بنية دلالية تعكس حالة إنسانية، فالإنسان في مواجهة الطبيعة الواسعة، محمول على حركة لا يملك التحكم فيها.

وإنّ توظيف صورة السفينة - وهي عنصر غير مألوف في البيئة الصحراوية - يمثل انزياحاً دلالياً يعبر عن اشتغال الخيال الشعري وقدرته على تحويل التجربة المناخية القاسية إلى صورة أكثر قابلية للفهم والتجسيد، فالمناخ يفرض على الشاعر استحضار مقابلات رمزية من عوالم أخرى، فيغدو البحر استعارة للفضاء الصحراوي، وتصبح السفينة مرآة للقافلة.

(٢٥) ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق عزة حسن، مطبوعات إحياء التراث القديم دمشق، ١٩٦٠، ص ٦٢.

ويمكننا القول: إنّ الصورة لا تقتصر على التشبيه، ولكنها تؤسّس لنسق من العلاقات الدلالية التي تربط بين الطبيعة والإنسان، فالسفينّة تعكس حالة القافلة، في حين يعبر الخليج عن فضاء احتواء متحرك، لا يضمن الاستقرار، وهكذا تتحول الصورة إلى نظام رمزي يعكس إدراكاً عميقاً لعلاقة الإنسان ببيئته.

وإنّ أثر المناخ يتجلى في مستويين: مستوى مباشر، يتمثل في استلهام مظاهر الحركة والتمايل الناتجة عن السفر في بيئة صحراوية، ومستوى رمزي يتمثل في تحويل هذه التجربة إلى صورة بحرية تنطوي على دلالات الاضطراب والاغتراب، فتتكشف قدرة الشعر الجاهلي على إنتاج صور تتجاوز حدود الواقع المباشر؛ لتؤسّس لوعي جمالي يعكس علاقة الإنسان بالبيئة والوجود معاً.

- والمستوى الحسي: الحرارة والرياح والجفاف، تُترجم إلى صور ملموسة تعكس صعوبة البيئة.
- المستوى الرمزي: الصبر والتحمل، الرحلة تظهر قيماً معنوية ضرورية لمواجهة الحياة.
- المستوى النفسي: التوتر والقلق والحزن، والتحدي الفردي يظهر عبر الرموز الطبيعية.

المبحث الثالث: السراب والخيال، انعكاسات نفسية للمناخ الصحراوي.

المطلب الأول: تجليات السراب في الخيال الشعري.

تمثّل الظواهر المناخية في البيئة الصحراوية كالسراب والرياح عنصراً أساسياً في تشكيل البنية النفسية والخيالية للشاعر الجاهلي، إذ تحوّلت تلك الظواهر إلى رموز عميقة، تعكس القلق الوجودي والتجربة الشعورية للإنسان العربي في العصر الجاهلي، ويمكننا أن نشير إلى أنّ تلك الظواهر بوصفها بنى تخيلية تنتج المعنى من خلال التفاعل بين الإدراك الحسي والتأويل النفسي، فيتحوّل الواقع إلى رمز والطبيعة إلى خطاب داخلي، و"هو يدل على فخامة أمر في البلاغة (٢٦)".

فالسراب بنية رمزية للوهم، ويُعدّ من أبرز الظواهر الصحراوية التي تركت أثراً واضحاً في الخيال الشعري لدى شعراء العصر الجاهلي، إذ يمثل ظاهرة بصرية قائمة على الخداع، يرى

(٢٦) الصعدي، عبد المتعال: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، الجزء الثالث في علم البيان، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٩م، ص ٧.

الإنسان الماء في الصحراء دون أن يكون موجوداً، وقد تحوّل هذا الإدراك الحسي إلى رمز دلالي عميق يعبر عن الوهم والخيبة، وهذا التوتر الدلالي يمثل المفارقة الدلالية، فتتجاوز معان متضادة داخل صورة واحدة؛ ومن منظور سيميائي، يتحول السراب من كونه ظاهرة طبيعية إلى علامة، تحمل دلالات متعددة، يشير إلى الوهم والخداع والبحث عن الخلاص؛ فالإنسان في الصحراء يركض نحو السراب ظناً أنه ماء، لكنه يكتشف خيبته، وهو ما يعكس تجربة وجودية عميقة.

ومن أبرز خصائص الشعر الجاهلي التوازي بين الظواهر الطبيعية والحالات النفسية، تصبح الطبيعة مرآة للإنسان، فالسراب يعكس الوهم، والرياح تعكس القلق، والمطر يعكس الأمل، وهذا التوازي يبرز التماثل البنيوي، تتطابق بنية الطبيعة مع بنية النفس، ويمكن اعتبار السراب استعارة كبرى في الشعر الجاهلي، لكونه يعبر عن طبيعة الحياة نفسها بوصفها وهمًا زائلاً، فكما أنّ السراب يخدع العين، كذلك تخدع الحياة الإنسان، وهو ما يجعل الصورة الشعرية ذات بعد فلسفي واضح، ليغدو السراب رمزاً للزمن الذي يركض الإنسان وراءه دون أن يصل إليه، وهو ما يعكس عبثية الوجود، وهذا ما يجعل الشعر الجاهلي يحمل بعداً تأملياً عميقاً يتجاوز الوصف إلى طرح أسئلة وجودية دقيقة، ومن ذلك قول الشاعر لبيد بن ربيعة في معلقته:

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحي واجتاب أردية السراب إكامها (٢٧)
ينتمي البيت إلى تجربة الشاعر لبيد بن ربيعة، وهو نموذج دال على تجلّي السراب في الخيال الشعري بوصفه ظاهرة مناخية تتحول إلى بنية جمالية ودلالية، وتكتنف ظاهرة السراب لتغدو أكثر من مجرد وهم بصري؛ إنها تتحول إلى مشهد حيّ نابض بالحركة والتموج، يعكس طبيعة الصحراء المتقلّبة وأثر المناخ في تشكيل الخيال الشعري.

ويقوم البيت على استعارة مكنية وتشخيص بليغ، فالشاعر ينسب إلى اللوامع فعل الرقص، وهو فعل إنساني، مما يمنح الضوء حركة نابضة، كأنها كائن حي يتحرك على سطح الأرض؛ كما أن عبارة (اجتاب أردية السراب) تقوم على استعارة تجعل السراب، كأنه ثوب يلبسه المكان، فتغدو (الإكام أي التلال) كأنها جسد مغطى بأردية متحركة، وهذه الصور تعكس قدرة الشاعر على تحويل الظاهرة البصرية إلى كيان متحرك، يجمع بين الامتداد والتموج.

(٢٧) العامري، لبيد بن ربيعة، ديوانه، دار صادر بيروت، د. ت، ص: ١٧٤.

كما أنّ في البيت حسّاً حركياً واضحاً، تتداخل الأفعال (رقص واجتنب) لتنتج إيقاعاً داخلياً متدفقاً، يعكس طبيعة السراب نفسه، وهذا الإيقاع انعكاس لإيقاع المناخ الصحراوي؛ فشدة الحرارة وتذبذب الهواء يولّدان تموجات بصرية تشبه في إيقاعها الرقص، وهو ما يُعدّ من تجليات التوافق بين الإيقاع الشعري والإيقاع الطبيعي.

وضمن إطار البلاغة الجديدة، فإنّ البيت بنية رمزية تعكس علاقة الإنسان بالبيئة الصحراوية، فالسراب رمز للتمثّل والوهم، تتجلى الطبيعة في صورة خادعة توهم بوجود ما ليس موجوداً، ومن ثمّ فإنّ اللوامع تمثّل حدود الإدراك البصري للإنسان، في حين أنّ السراب يمثّل المسافة بين الحقيقة والوهم، وحين يكتشف الشاعر أنّ السراب وهم، ينتج عن ذلك شعور بالخيبة، وهو انعكاس مباشر لتأثير البيئة الصحراوية في النفس البشرية، فالسراب رمز للأمال غير المحققة والبحث المستمر عن الحياة والماء في بيئة قاسية، ويستخدم الشاعر السراب لتصوير حالة نفسية من القلق والاضطراب، وهذا التشبيه يساهم في إبراز المعادل الموضوعي، يتم التعبير عن الحالة النفسية من خلال عنصر خارجي، وهي تظهر في الأيقونية الحركية.

إنّ فعل الرقص يحمل دلالة رمزية على الاضطراب وعدم الثبات، وهو ما ينسجم مع طبيعة السراب الذي يتغيّر بتغيّر زاوية النظر ودرجة الحرارة؛ أما (اجتنب أودية السراب) فيحيل إلى فكرة التغطية والتجليّ، يبدو المكان، وكأنه مكسو بطبقة وهمية تتغيّر باستمرار، وهنا تتجلى الصحراء بوصفها فضاءً يولّد الإدراك المتحرك لا الثابت، ويجعل من الرؤيا تجربة غير مستقرة. يتجلى أثر المناخ في البيت بوضوح في تشكيل الصورة والإيقاع معاً؛ فشدة الحر والانتساع يولّدان ظاهرة السراب، والسراب بدوره يولّد لغة شعرية قائمة على الحركة والتشخيص والانزياح، وهكذا يتحول المناخ إلى فاعل جمالي، يساهم في إنتاج الخيال الشعري، ويعيد تشكيل العلاقة بين الإنسان والطبيعة، تتجلى في وعي الشاعر وخياله.

المطلب الثاني- البعد النفسي للخيال الصحراوي.

يُظهر استخدام السراب في الشعر الجاهلي ارتباطاً وثيقاً بالحالة النفسية للشاعر، يعكس القلق والضياع، والإحساس بعدم اليقين، فالسراب انعكاس لحالة داخلية يعيشها الشاعر، ومن منظور التحليل النفسي، يمكن اعتبار السراب إسقاطاً نفسياً، يعبرّ الشاعر عن مخاوفه من الفناء والضياع من خلال ظاهرة طبيعية، وهذا ما يجعل الصورة الشعرية تتجاوز حدود الوصف إلى التعبير عن اللاوعي النفسي.

كما تمثل الرياح عنصراً مناخياً مهماً في الشعر الجاهلي، ترتبط بالحركة والاضطراب والتغير، فالرياح في الصحراء قوة لا يمكن التحكم بها، مما يجعلها رمزاً للقلق وعدم الاستقرار، كما يمكن تفسير الرياح بوصفها رمزاً للقدر، تتحرك دون إرادة الإنسان، وتؤثر في حياته تأثيراً مباشراً؛ فالرياح في الصحراء قد تحمل الخير (المطر) أو الشر (العواصف)، مما يجعلها رمزاً للقوى الخارجة عن سيطرة الإنسان؛ وهذا التفسير يتوافق مع الرؤيا الجاهلية للعالم، يعيش الإنسان في مواجهة قوى طبيعية قاهرة، لا يستطيع التحكم بها، بل يحاول التكيف معها.

ولا يقتصر تأثير السراب والرياح على الصورة، لكنه يمتد إلى الإيقاع الذي يعكس الحالة النفسية المرتبطة بهذه الظواهر، فالسراب يرتبط بإيقاع بطيء يوحي بالامتداد والوهم، في حين ترتبط الرياح بإيقاع سريع يعكس الحركة والاضطراب، وهذا التباين الإيقاعي يعكس التباين في التجربة النفسية، مما يجعل الإيقاع جزءاً من التعبير عن المعنى، وليس مجرد عنصر شكلي.

ويمكننا القول: إن الشاعر الجاهلي في وصف السراب أو الرياح - كما اتضح قبل قليل - أعاد تشكيلها داخل النص، مما جعلها عناصر تخيلية تنتج المعنى، لتبرز التخييل البيئي، فتتحول الطبيعة إلى لغة رمزية، ولعل من ذلك أيضاً قول الشاعر زهير بن أبي سلمى:

وغيث من الوسمي حوّ تلاعه
أجابت روابيه النجاء هوأطله (٢٨)
البيت من الشواهد التي تتجلى فيها العلاقة العميقة بين المناخ (المطر) والبعد النفسي في الخيال الصحراوي بوصفه مدخلاً لفهم الكيفية التي يعيد بها الشاعر تشكيل العالم الطبيعي وفق حاجاته الشعورية، في بيئة صحراوية تتسم بالقسوة والندرة.

ويقوم البيت على بناء وصفي دقيق للمطر (الغيث)، يصفه بأنه وسمي أي مطر أول الخريف، وهو المطر المنتظر الذي يُحيي الأرض بعد الجفاف، وصفه بحو تلاعه؛ يشير إلى الخضرة الشديدة، وهو تعبير يوحي بالحياة والاندفاع، أما قوله (أجابت روابيه النجاء هوأطله)، فيصور استجابة الأرض للمطر، تتفاعل الروابي (المرتفعات) مع انهيار الغيث، وكأن المطر نداء والأرض إجابة. وهذا التراسل بين الفعل ورد الفعل يُظهر حساً دقيقاً بتناغم الطبيعة. وهذا الوصف لا يمكن فصله عن البعد النفسي؛ فالمطر في الصحراء حدث وجودي يحمل دلالات الحياة والانبعاث، ومن هنا يتجلى الخيال الصحراوي بوصفه خيالاً مشبعاً بالانتظار

(٢٨) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة ثعلب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٤، ص ١٢٧.

والترقب؛ فالشاعر الذي يعيش في بيئة يغلب عليها الجفاف، يكتسب حساسية مفردة تجاه المطر، فيتحوّل الغيث إلى رمز للنجاة والخصب، وإلى لحظة خلاص مؤقت من القسوة.

في ضوء التحليل النفسي للخيال، يمكن القول: تعكس صورة المطر حالة داخلية من التوتر والانفراج، فالمطر يرمز إلى الإشباع بعد الحرمان وإلى الامتلاء بعد الفراغ، وهذا يتجلى في اختيار ألفاظ مثل (الوسمي والنجاء)، تحمل الأولى دلالة الزمن المنتظر، في حين تشير الثانية إلى الاستجابة السريعة، وهذا التلاقي بين الانتظار والاستجابة يعكس ديناميكية نفسية تقوم على التوتر ثم الانفراج.

ويقدم البيت صورة بلاغية لا تفهم بوصفها مجرد وصف للطبيعة، وإنما بوصفها بنية رمزية تعكس علاقة الإنسان بالكون، فالغيث علامة على التجدد، وقوله: (أجابت) إشارة إلى وعي تفاعلي يرى في الطبيعة كياناً حياً قادراً على البوح والاستجابة عبر مونولوج مميّز بين الإثارة والاستجابة، وهنا تتحول الطبيعة إلى شريك في التجربة النفسية، وليس مجرد موضوع للوصف. والإيقاع في البيت يعكس البعد النفسي ذاته؛ فالتوازن بين الشطرين، وتوالي الأصوات الممدودة، يمنحان البيت إيقاعاً هادئاً مناسباً، يوازي حركة المطر وانسيابه، وهذا الانسجام الإيقاعي يعكس حالة من الطمأنينة التي يبعثها الغيث في النفس الصحراوية.

فالبعد النفسي يكشف أن الخيال الصحراوي آلية دفاعية وتعويضية، تُعيد إنتاج العالم على نحو يمنح النفس شعوراً بالتوازن، والمطر يتحوّل إلى رمز للخصب النفسي بقدر ما هو خصب طبيعي، وتغدو القصيدة مجالاً لتفريغ القلق واستعادة التوازن بين الإنسان وبيئته.

وتُعدّ البيئة الصحراوية القاسية من أبرز المحفزات النفسية في الشعر العربي الجاهلي، إذ تؤدي ظروفها المتطرفة إلى تشكيل وعي شعري يتسم بالقلق الوجودي والحزن والبحث الدائم عن الماء والحياة، وتؤدي قسوة الصحراء إلى شعور دائم بالترقب والريبة في مواجهة الطبيعة، وهو ما يُشعر بالقلق الوجودي، فالصحارى الممتدة وغياب مصادر الماء، والموت المحتمل في أية لحظة، تُنتج لدى الشاعر إحساساً بالضعف أمام القوى الطبيعية، الذي يتجلى في النص شعورياً كقلق وجودي يتجاور مع التأمل في الحياة والموت، ويرتبط الماء بالحياة ارتباطاً مباشراً فيكون بحث الإنسان عنه بحثاً عن الاستمرار ذاته، والحزن إلى الماء يعبر عن حبّ البقاء والأمل في الخلاص.

□

المبحث الرابع: الرموز المناخية في الشعر الجاهلي وتأثيراتها في الإيقاع الشعري:

المطلب الأول: الدلالات الرمزية للعناصر المناخية.

تتحوّل العناصر المناخية في الشعر العربي الجاهلي عمومًا إلى رموز دلالية وصور شعرية تعبّر عن تجارب الإنسان البدوي في مواجهة بيئته الصحراوية، وهي تؤثر في الإيقاع الداخلي والجرس الصوتي للشعر، مما يجعل المناخ جزءًا لا يتجزأ من بنية القصيدة.

ومنهما الرياح، وهي رمز التحوّل والاضطراب، فالرياح في الصحراء تمثل قوة متحركة تؤثر في المشهد النفسي للشاعر؛ لكونها رمزًا للتحوّل المستمر وعدم الثبات، سواء في المزاج أم المكان أو في المواقف الحياتية، والشعراء الجاهليون كثيرًا ما استخدموا الرياح للتعبير عن التقلبات النفسية والاضطرابات الداخلية، فتصبح أداة بلاغية لإضفاء ديناميكية صوتية وإيقاعية على النص.

ومن الرموز أيضًا: المطر، وهو رمز الحياة والأمل، فالمطر يمثّل في الشعر الجاهلي الحياة والخصوبة والتجدّد، خصوصًا في بيئة الصحراء الجافة، يشير الماء إلى استمرارية الحياة والأمل في التغلب على القسوة الطبيعية، ويستخدم الشاعر المطر كرمز للخير والفرح، وغالبًا ما يكون وسيلة لتحريك الإيقاع الموسيقي للنص عبر تكرارات صوتية ومرونة في الوزن.

ومن العناصر: الشمس، وهي رمز القسوة والقوة والصلابة والوضوح البصري والوجداني، فحرارة الشمس وصلابتها، تُضفي على النص بعدًا صلبًا في الإيقاع والأصوات، لتظهر القسوة والصرامة على المستوى الدلالي، ويشعر القارئ أو السامع بالضغط النفسي الناتج عن البيئة، و"عني الجاهليون بالغيث والمطر في لوحات الافتتاح وفي لوحات آخر، لكون الغيث يرمز إلى الخصب والحياة والخلود، في حين يرمز المطر إلى الفناء"^(٢٩)، ومن تصوير المطر والسحاب المصحوب بالرعد قول الشاعر النابغة الذبياني:

أَجَشَّ سَمَكِيًّا كَأَنَّ رَبَابَهُ أَرَاعِيْلُ شَتَّى مِنْ قَلَائِصَ أَبْدٍ^(٣٠)

يبرز البيت التشبيه التمثيلي، لنلمح جمالية الصورة المركبة، وقد ساهم القزويني المجاز المركب^(٣١)، وتتجلّى في البيت قدرة الشاعر الجاهلي على تحويل الظواهر الطبيعية إلى مشاهد حيّة

(٢٩) إبراهيم، صاحب الخليل: الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م، ص ٣٧.

(٣٠) الذبياني، النابغة: ديوان النابغة الذبياني، تحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، مطابع الشركة التونسية، ط ٢، ١٩٨٦م، ص ١٠٠.

نابضة بالحركة والدلالة، إذ يشبه الشاعر السحاب الأبيض الكثيف (الرباب) بقطعان من النوق الوحشية المتفرقة، ويستند إلى هيئة مركبة تجمع التفرق والحركة والامتداد في الفضاء، فعبارة (أراغيل شتى) توحى بالتشتت والانتشار، بينما تضيف (قلائص أبد) بعداً دلالياً، يتصل بالوحشية والانفلات، وبذلك تتكامل عناصر الصورة لتؤدي وظيفة تصويرية دقيقة، تجعل السحاب مرئياً في حركته لا في شكله فحسب، أما لفظ (أجش) فهو يرتبط بالصوت، إذ ينقل خشونة الرعد، وهو ما يضيفي على الصورة بعداً سمعياً، يوازي بعدها البصري، وبهذا يتحقق نوع من التداخل الحسي، تتآزر الحواس في بناء المشهد.

ولكننا نكشف عن أفق أعمق؛ إذ لا يُنظر إلى هذه الصورة بوصفها تشبيهاً فنياً فقط، ولكن بوصفها نظاماً رمزياً، يعكس رؤية الإنسان الجاهلي للطبيعة، فالسحاب كائن حي متحرك، أقرب إلى قطع منفلت يجوب الفضاء، وهذا التحويل من الظاهرة المناخية إلى الكائن الحيواني يدل على نزعة إسقاطية، يُسقط فيها الشاعر خبرته الصحراوية على العالم العلوي، فيرى السماء بعين الصحراء.

ويحمل الرعد في هذا السياق دلالة مزدوجة؛ فهو من جهة علامة على المطر المرتقب، أي على الخصب والحياة، ومن جهة أخرى صوت أجش يوحى بالقوة والرهبة، ومن ثم تشكل صورة الطبيعة بوصفها قوة ملتبسة، تجمع بين العطاء والتهديد. أما السحاب، فرغم كونه حاملاً للمطر، يظهر في حالة تفرق واضطراب، مما يضيفي على دلالة طابعاً غير مستقر، وكأنّ الرجاء ذاته مهدد بالتبدد.

إنّ تشبيه السحاب بالإبل الوحشية، وهي رمز للحياة والاستمرار، لكنها حين تُوصف بالأبد (أي الوحشية) تتحول إلى رمز للقوة المنفلتة التي لا تُروّض، ومن هنا يغدو السحاب تمثيلاً لقوة طبيعية تحمل إمكان الحياة، لكنها في الوقت نفسه عصية على الضبط، فتتجاوز الصورة حدود البلاغة التقليدية لتغدو تعبيراً عن رؤية وجودية، يتداخل فيها الإنسان والطبيعة في علاقة قائمة على الترقّب والرهبة، فالبيت لا يقدم مشهداً وصفياً فحسب، لكنّه يكشف عن وعي عميق بطبيعة العالم، تتجاوز الحركة والفوضى والرجاء والخطر، في بناء شعري مكثف يظل مفتوحاً على تأويلات متعددة.

=

(٣١) مطلوب، أحمد: معجم المصطلحات البلاغية، الجزء الثاني، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص ١٨٣.

المطلب الثاني: أثر الرموز المناخية في الإيقاع.

تمثل ظاهرتا الغيم والمطر في الشعر العربي الجاهلي بؤرتين دلالتين مركبتين داخل النسق الشعري، إذ تتجاوزان كونهما ظاهرتين طبيعيتين إلى كونهما بنيتين رمزيتين تسهمان في إنتاج المعنى الجمالي والنفسي، ويمكن النظر إلى الغيم والمطر بوصفهما علامتين ثقافيتين تولدان داخل سياق بيئي خاص هو الصحراء، الندرة المائية تمنح لهما قيمة رمزية عالية، ترتبط بالخصب والحياة والأمل والانبعاث، وحضورهما في النص الشعري مشحون بطاقة دلالية مكثفة تنعكس على الصورة والإيقاع معاً.

والغيم بوصفه علامة جمالية ورمزية، يحتل مكانة متميزة في الخيال الشعري الجاهلي، يرتبط بالانتظار والترقب، ويُعدّ مقدمة للمطر، فهو يحمل دلالة الأمل المؤجل، أي يمكن النظر إليه على أنه علامة انتقالية، يقع بين حالتي القحط والخصب والجفاف والارتواء، وهو ما يمنح الصورة الشعرية بعداً ديناميكياً.

ويبرز التداخل بين العنف والجمال في الصورة الشعرية الجاهلية، ومن ذلك قول الشعر عنتر بن شداد في معلقته:

ولقد ذكرْتُك، والرماحُ نواهلُ منىً ويبضُّ الهنْدُ تقطُرُ من دمي
فوددتُ تقبيلَ السَّيْفِ لأنها لمعتُ كبارقِ ثغرِكَ المتبسِّمِ (٣٢)
وهذا ما يمثل التوتر الجاهلي؛ حيث تتجاوز صورتان متناقضتان: العنف (الدم، السيوف، الرماح) والجمال (الابتسامة، المحبوبة، اللعان)، وهذا التوازي بنية مركبة، تنتج معنى جديداً، فالشاعر لا يفصل بين الحرب والحب، ولكنه يدمجها في صورة واحدة، تتحوّل السيوف إلى وسيلة استدعاء للجمال، بإعادة ترميز الواقع، تتحول أدوات القتل إلى رموز جمالية. وتبرز الأيقونية البصرية في قوله: (لمعت كبارق ثغرِكَ المتبسِّمِ)، إذ يستخدم الشاعر تشبيهاً يقوم على العلاقة البصرية بين لمعان السيوف ولمعان البرق، ثم يربط هذا اللعان بابتسامة المحبوبة، وهذا التدرج في الصورة يمثل الأيقونية البصرية، يتم بناء المعنى عبر التشابه الحسي بين عناصر مختلفة، فالبرق (وهو جزء من ظاهرة الغيم والمطر) يمثل لحظة ضوء خاطف في السماء، وهو ما يقابله لمعان السيوف في المعركة، ثم يتحوّل هذا اللعان إلى دلالة عاطفية مرتبطة بالابتسامة، وهنا نلاحظ انتقالاً من الرمز الطبيعي إلى الحربي إلى العاطفي، في سلسلة دلالية متصلة؛ ويمثل البرق وسيطاً دلالياً بين الطبيعة والإنسان، ففي شعر عنتر، لا يظهر الغيم مباشرة، وإنما يظهر من خلال

(٣٢) العنبي، عنتر بن شداد بن معاوية بن قراد، الديوان، مطبعة الآداب بيروت، ١٩٩٣م، ص ٨٤.

أثره (البرق)، وهو يشكل حضوراً غير مباشر، وهذا الحضور يجعل الصورة أكثر كثافة، يُستدعى الغيم ضمناً من خلال البرق الذي يحمل دلالات الأمل والخطر في آن واحد، فالبرق قد يشر بالمطر، لكنه قد يثير الرهبة، وهو ما يعكس ازدواجية الطبيعة الصحراوية.

وتمثل السيوف معادلاً موضوعياً للحالة النفسية للشاعر، فهو يعبر من خلالها عن حبه وحنينه، وبدلاً من التعبير المباشر عن العاطفة، يستخدم الشاعر عناصر خارجية (السيوف والبرق) لتجسيد تلك العاطفة، وهذا ما يجعل الصورة الشعرية مركبة، تتداخل الدلالة الحسية (اللمعان) مع الدلالة النفسية (الحب)، في بنية واحدة.

ويتميز بيتا عنتره بإيقاع متسارع يعكس حركة المعركة، فتتتابع الأفعال: (ذكرتك، تقطر، لمعت)، وهي أفعال حركية تعكس التوتر، وفي المقابل، تأتي صورة الابتسامة لتبطل الإيقاع وتمنحه لحظة تأمل، فهذا التناوب بين السرعة والبطء يمثل الإيقاع الداخلي، يتشكل الإيقاع من خلال المعنى والوزن معاً، كما أن تكرار الأصوات المجهورة (راء، اللام) يعزز قوة الإيقاع، مما يتناسب مع أجواء المعركة.

ولاحظنا في البيتين أنهما يقومان على ثنائية أساسية: العنف مقابل الجمال، وهي ثنائية تعكس طبيعة التجربة الجاهلية، يتجاوز القتال والحب، فالمطر والغيم (ضمناً عبر البرق) يمثلان الحياة، في حين تمثل السيوف الموت، وهذا التداخل بين الحياة والموت يخلق توتراً دلالياً، يجعل الصورة أكثر عمقاً، لا يمكن فصل الجمال عن العنف، كونها يظهران معاً في تجربة واحدة في بنية تضادية.

ويمكننا القول: لا يصف عنتره الغيم أو المطر وصفا مباشراً، ولكنه يوظف أثرهما في البيتين ضمن صورة مركبة، مما يعكس التخيل البيئي، والشاعر يعيد الشاعر تشكيل الطبيعة، وهذا التخيل يمنح النص بعداً جمالياً، تتحول الظواهر الطبيعية إلى أدوات للتعبير عن العاطفة، مما يعكس قدرة الشاعر على استحضار الجمال حتى في أشد لحظات العنف.

ويتضح أن الغيم والمطر -وهما مثالان من العناصر المناخية في الشعر الجاهلي- يشكلان بنية رمزية عميقة تسهم في إنتاج المعنى الجمالي، وتتداخل الطبيعة مع النفس والإيقاع مع المعنى، مما يؤكد أن البيئة الصحراوية عنصر فاعل في تشكيل الذائقة الجمالية للشاعر العربي في العصر الجاهلي.

الخاتمة

وفيها تلخيص لأهم النتائج والتوصيات.

أولاً: النتائج:

أبرزت الدراسة أنّ البيئة الصحراوية كانت بنيةً مركزيةً فاعلة أسهمت في تشكيل الرؤيا الجمالية والبناء الإيقاعي والعمق النفسي للنص الشعري في العصر الجاهليّ، فقد تبين أنّ الشاعر الجاهليّ كان مؤوِّلاً لها ومُعيد إنتاجها داخل نسق رمزي معقّد، تتداخل فيه التجربة الحسية مع الدلالة النفسية والوجودية.

و كشفت الدراسة أنّ الصحراء بما تحمله من قسوة واتساع وجفاف قد أسهمت في تكوين ذائقة جمالية تقوم على البساطة والتكثيف والوضوح، انعكس ذلك في اعتماد الشاعر على صور حسية مباشرة وألفاظ محدودة لكنها كثيفة الدلالة؛ كما أظهرت أنّ العناصر البيئية، مثل الأطلال والناقة والسراب والرياح والمطر والشمس والليل، تحوّلت إلى رموز دلالية تحمل أبعاداً نفسية ووجودية عميقة؛ فبعد دراسة العناصر المناخية والبيئية في الشعر العربي الجاهلي وتحليلها وفق المنهج البلاغي الحديث، تظهر نتائج أساسية عدة، تُلخص طبيعة العلاقة بين البيئة الصحراوية والصور الشعرية والإيقاع الداخلي للنص، وتتمثل في:

١. الصحراء عنصر بنيوي في تشكيل الشعر الجاهلي: أظهرت الدراسة أنّ الصحراء عنصر-

بنيوي مركزي في تكوين النص الشعري، بما تحمله تلك البيئة من قسوة واتساع وجفاف وندرة الموارد، فقد صاغت وعي الشاعر، وخزنت في مخيلته صوراً رمزية استخدمت في التعبير عن الصبر والتحمل والرحلة والبقاء.

٢. ارتباط الإيقاع بالبيئة المناخية: أكدت الدراسة أنّ الإيقاع الشعري في الشعر الجاهلي يتأثر مباشرة بالعوامل المناخية، فالرياح تولّد اضطراباً إيقاعياً وحركة صوتية ديناميكية، والمطر يخلق انسجاً وانسجاً صوتياً، يعكس خصوبة البيئة، وهذا الترابط بين الرمز المناخي والإيقاع الداخلي للنص يجعل البيئة جزءاً فاعلاً في بناء القصيدة من الناحيتين الدلالية والصوتية.

٣. حضور البعد النفسي في الخيال الصحراوي: فالرموز المناخية والصحراء نفسها كانت مرآة للتجربة النفسية للشاعر، فالسراب هو رمز للوهم والخداع البصري، يعكس القلق الوجودي وعشبة التوقعات، والمطر والغيم يرمزان إلى الأمل والتجدد وسط الظروف

القاسية، والتجربة الصحراوية صاغت البنية الذهنية والعاطفية للنص، مما يجعل الشعر مرآة للعلاقة بين الإنسان وبيئته.

وعلى مستوى الإيقاع، بينت الدراسة أنّ العوامل المناخية أدّت دوراً حاسماً في تشكيل البنية الموسيقية للنص؛ حيث ارتبطت صلابة الإيقاع بقسوة المناخ، كما في صور الرياح والشمس، في حين ارتبطت اللبونة والانسحاب بصور المطر والليل، وهذا يدل على وجود تفاعل عضوي بين الدلالة والإيقاع، يصبح الصوت امتداداً للمعنى، وتتحول الطبيعة إلى عنصر مؤثر في تشكيل الموسيقى الداخلية للقصيدة.

وأما على المستوى النفسي، فقد أظهرت الدراسة أنّ الخيال الصحراوي يعكس حالة وجودية معقدة، تتراوح بين القلق والترقب والحنين؛ حيث تجسد ظاهرة السراب مثلاً ثنائية الأمل والخيبة، بينما يعكس الليل العزلة والتأمل، ويجسد المطر التطلع إلى الحياة والتجدد، وإنّ الشعر الجاهلي لا يمكن فهمه فهماً دقيقاً دون استحضار البعد النفسي المرتبط بالبيئة.

وفي ضوء التحليل البلاغي الحديث، يتضح أنّ الشعر الجاهلي يقوم على بنية متكاملة تجمع بين الرمز والإيقاع والدلالة النفسية، تتداخل هذه العناصر لتنتج خطاباً شعرياً غنياً، يعكس تجربة الإنسان في مواجهة الطبيعة، كما يؤكد ذلك التحليل أنّ البيئة مكوّن داخلي في بنية النص.

ويمكن القول: إنّ الدراسة تسهم في إعادة قراءة الشعر الجاهلي من منظور حديث، يركز على التفاعل بين الإنسان والبيئة، ويكشف عن عمق التجربة الشعرية بوصفها نتاجاً لعلاقة جدلية بين الواقع الطبيعي والوعي الإنساني، وإنّ فهم الشعر العربي الجاهلي يظل رهيناً بفهم بيئته، وما تختزنه من قيم جمالية وإيقاعات صوتية وأبعاد نفسية، تجعل منه نصّاً حياً، يتجاوز زمنه، ويظل قابلاً للتأويل والدراسة في ضوء مناهج نقدية متعددة.

ثانياً: التوصيات

- اعتماد البيئة الطبيعية عنصراً تحليلياً أساسياً في قراءة النصوص الأدبية، والتركيز على البعد النفسي والوجودي في تحليل الصور الشعرية، وإجراء دراسات مقارنة بين البيئات (صحراوية، زراعية، حضرية) وتأثيرها في الأدب.
- توظيف مناهج البلاغة الحديثة في تحليل الشعر العربي، وتوسيع الدراسات لتشمل العصور الأدبية اللاحقة (الإسلامي، الأموي، العباسي، الحديث).
- تعميق البحث في العلاقة بين الإيقاع الشعري والعوامل المناخية، ودراسة الأثر الصوتي للعناصر الطبيعية في تشكيل الموسيقى الداخلية للنص.

- إنشاء قواعد بيانات رقمية للنصوص الشعرية الجاهلية، وتوظيف التحليل الرقمي والإحصائي في دراسة الإيقاع الشعري.
- تشجيع البحوث متعددة التخصصات (الأدب، الجغرافيا، علم النفس)، وتطوير مناهج تعليمية تربط الأدب بالبيئة والثقافة.

فهرس المصادر والمراجع

١. الأبعاد الجمالية للمكان في القصيدة العربية: دراسة في بعض النماذج من الشعر الجاهلي، فواز المعمرى، مجلة كلية الآداب واللغات، الجزائر جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد ٢٢، جانفي ٢٠١٨م.
٢. الأبعاد الفنية للصورة التشبيهية في الشعر الجاهلي، الأخضر عيكوس، مجلة جامعة قسطنطينة للعلوم الإنسانية، العدد ٥، لعام ١٩٤م.
٣. أثر البيئة في إنتاج الصورة التشبيهية في كتاب خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الأصفهاني، جواد محمود محمد علاوي وآخرون، مجلة الآداب، ملحق العدد ١٤٧، كانون الأول، ١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٣م.
٤. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني: تحقيق غريد الشيخ محمد وإيمان الشيخ محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
٥. الآليات البلاغية الحجاجية في المعلقات: معلقتا عمرو بن كلثوم وزهير بن أبي سلمى أنموذجاً، هناء لبيهي، رسالة ماستر، مقدمة لجامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي في الجزائر، في العام الدراسي، ٢٠١٤-٢٠١٥م.
٦. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة العاشرة، ١٩٩٩م.
٧. ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، مطابع الشركة التونسية، ط ٢، ١٩٨٦م.
٨. ديوان امرئ القيس، دار صادر، بيروت، د. ت.
٩. ديوان بشر بن أبي خازم، تحقيق: عزة حسن، مطبوعات إحياء التراث القديم دمشق، ١٩٦٠.
١٠. ديوان عنتر، عنتر بن شداد بن معاوية بن قراد العبسي، مطبعة الآداب بيروت، ١٨٩٣م.
١١. ديوان لبيد، لبيد العامري، دار صادر بيروت، د. ت.
١٢. شرح المعلقات السبع، الزوزني، ط ١، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
١٣. شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة ثعلب، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٤م.
١٤. الشعراء الجاهليون والعوامل المؤثرة في شعرهم، علي مهيمن إبراهيم حمزة الخزرجي، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، مجلد ٢، العدد ٧، ٢٠٢١.
١٥. الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، صاحب خليل إبراهيم، اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٠م.
١٦. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢.

١٧. فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال، الدرة، محمد علي طه الدرة، مكتبة السوادي، جدة، ط٢، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
١٨. مشاهد الصحراء وأثرها في الشعر الجاهلي والحديث: دراسة وصفية تحليلية موازنة، إبراهيم محمد السلوقي، الجمعية الليبية للعلوم التربوية والإنسانية، العدد ٢٤، المجلد ٤.
١٩. المفارقة الزمنية في رواية سيدات زحل للروائية لطيفة الدليمي: دراسة تحليلية، فاضل محمد قادر، وشيدا مجيد، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد ٣١، العدد ٢، ٢٠٢٣.
٢٠. نقد الشعر في الأدب العربي، نسيب عازار، منشورات دار المكشوف بيروت، ١٩٣٩.

Romanization of references

1. Al-Ab'ād al-Jamālīyah lil-makān fī al-qaṣīdah al-'Arabīyah, dirāsah fī ba'ḍ al-namādhij min al-shi'r al-Jāhilī, al-Mu'ammārī, Fawwāz, Journal of the Faculty of Arts and Languages, University of Mohamed Khider Biskra, Algeria, Issue 22, January 2018.
2. Al-Ab'ād al-fannīyah lil-ṣūrah al-tashbīhīyah fī al-shi'r al-Jāhilī, 'ykws, al-Akhḍar: Journal of Constantine University for Humanities, Issue 5, 1940.
3. Athar al-bī'ah fī intāj al-Ṣūrah al-tashbīhīyah fī Kitāb Kharīdat al-qaṣr wa-jarīdat al-'aṣr, al-Aṣfahānī, 'Imād al-Dīn, Journal of Arts, Supplement to Issue 147, December 1445 AH/2023 CE.
4. Al-Īdāḥ fī 'ulūm al-balāghah, al-Qazwīnī, al-Khaṭīb: edited by Ghareed al-Sheikh Muhammad and Iman al-Sheikh Muhammad, Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, first edition, 2004.
5. Bughyat al-Īdāḥ li-talkhīṣ al-Miftāḥ fī 'ulūm al-balāghah, al-Ṣa'īdī, 'Abd al-Muta'āl: Part Three on the Science of Rhetoric, Maktabat al-Adab, Cairo, tenth edition, 1999.
6. Al-Balāghīyah al-ḥijāyīyah fī al-Mu'allaqāt, m'lqtā 'Amr ibn Kulthūm wa-Zuhayr ibn Abī Salmā unamūdhajan, lbyhy, Hanā': Mechanisms, Master's thesis, submitted to the University of Shahid Hamma Lakhdar al-Wadi in Algeria, academic year 2014-2015.
7. Dīwān al-Nābighah al-Dhubyānī, al-Dhubyānī, al-Nābighah: edited by Sheikh Muhammad al-Tahir ibn Ashur, Tunisian Company Press, second edition, 1986.
8. Dīwān Imri' al-Qays, al-Kindī, Dar Sader, n.d.
9. Dīwān Bishr ibn Abī Khāzim, Ibn Abī Khāzim, Bishr: edited by Azza Hassan, Revival of Ancient Heritage Publications, Damascus, 1960.
10. Dīwān Zuhayr ibn Abī Salmā, Ibn Abī Salmā, Cairo, Dar al-Qawmiyya for Printing and Publishing, 1964.
11. Dīwān Labīd, al-'Amirī, Labīd ibn Rabī'ah, Dar Sader, Beirut, n.d.
12. Sharḥ al-Mu'allaqāt al-sab', al-Zawzanī, Abū 'Abd Allāh Ḥusayn ibn Aḥmad ibn Ḥusayn, 1st ed., Dar Ihya' al-Turath al-'Arabi, 1423 AH/2002 CE.
13. Al-Shu'arā' al-Jāhilīyūn wa-al-'awāmil al-mu'aththirah fī shi'ruhum, al-Khazrajī, 'Alī Muhaymin Ibrāhīm Ḥamzah, Journal of Humanities and Natural Sciences, Vol. 2, No. 7, 2021.
14. Al-Ṣūrah al-sam'īyah fī al-shi'r al-'Arabī qabla al-Islām, Ibrāhīm, ṣāḥib al-Khalīl: Arab Writers Union, 2000 CE.
15. Al-Ṣūrah al-fannīyah fī al-Turāth al-naqdī wa-al-balāghī 'inda al-'Arab, D. 'Uṣfūr, Jābir: Arab Cultural Center, Beirut, Third Edition, 1992.
16. 'Antarah ibn Shaddād ibn Mu'āwīyah ibn qrad, al-'Absī, Al-Adab Press, Beirut, 1893.
17. Fāriqah al-zamanīyah fī riwāyah sayyidāt Zuḥalīn llrwā'yh Luṭfīyah al-Dulaymī, Qādir, Fāḍil Muḥammad, wa-Muḥammad, shydā Majīd: An Analytical Study, Journal of the University of Babylon for Humanities, Volume 31, Issue 2, 2023.

18. *Fatḥ al-kabīr al-Mutaʾāl iʾrāb al-Muʾallaqāt al-ʾshr al-Ṭawwāl*, al-Durrah, Muḥammad ʿAlī Ṭāhā: Vol. 1, Al-Sawadi Library, Jeddah, Second Edition, 1409 AH/1989 CE.
19. *Mashāhid al-ṣaḥrāʾ wa-atharuhā fī al-shiʿr al-Jāhilī wa-al-ḥadīth*, alslwqy, Imḥammad Ibrāhīm: A Descriptive, Analytical, and Comparative Study, Libyan Association for Educational and Human Sciences, Issue 24, Volume 4.
20. *Naqd al-shiʿr fī al-adab al-ʿArabī, ʿĀzār, Nasīb*: Dar Al-Makshouf Publications, Beirut, 1939.